مسيح بلا توراة
(محمد البوعزيزى)
(رواية قصيرة)
لـ أسامة حبشي

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١١ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ١١٢٦٠ / ٢٠١١

الترقيم الدولي : ٠-١٤-٦٤٠٢-٩٧٧-٩٧٨

جميع حقوق الطبع محفوظة

وسط البلد - عمارات معروف - عمارة ب - الدور الثاني - شقة ١٦
ت/ ٢٥٧٦٣٩٤٢ (٠٢)
البريد الإلكترونى:
Baitelyasmin@yahoo. com
بيت الياسمين للنشر و التوزيع

المدير العام
زياد إبراهيم

إلى روح محمد البوعزيزى.
وإلى «زوجتى» و»مازن «الذى يحكى لسلحفاته حكايات مختصرة ، بينما هى تروى عطشها بقليل من الماء والصبر.

حين ولدتُ
قَطّروا دمعاً فى عينيّ
ليكون بصرى
بحجم آلام شعبى

إمبرتو كال

(١)

مرّ عامان الآن، وهى تتبع أصوات الرمال فى صحراء الجنوب، الأصوات التى حدثها عنها العجوز– عابر الشرق إلى الغرب– كما أحب هو أنْ يقدم نفسه إليها لحظة لقائهما العابر برصيف أمام المقهى الشهير، عامان وهاهى الصحراء تفض بكارتها فى كف الفتاة بينما هى مفصولة تماماً عن أى شيء ما عدا انتظار تلك الأصوات، هى تغتصب الوقت بأشياء محددة تتراوح ما بين اختراع الماء والبحث عن الزواحف من أجل الطعام ثم الغفوة وأخيراً التذكر، أول الإنسانية المعرفة وآخرها تجاهل المعرفة، وبمناسبة التذكر، فأول ماتعرفه عن ماضيها تلك التى تدعى

« ص» – للعلم لها اسم وأب وأم وأخوة لكنها قررت استئصال نفسها من شجرتهم وأحبت أنْ تلقب بحرف الصاد، حينما قررت الرحيل من الشمال باتجاه الجنوب – يوم الانقلاب الطبى كما نقول هنا ، أو لحظة انتقال سلطة البلاد من رئيس لآخر قادم من الشرطة عام ١٩٨٧، وهذا الشرطى /الرئيس تعهد بوعود تكفى لجعل البلاد تتنافس مع جنة الله الموعودة .

كانت فى منتصف العشرينات من عمرها، فتاة تهرب من عائلتها ومن ذاتها، لتبحث عن البعيد، تلهث وراء أثر لحلم انتابها لمرات عديدة، حيث القدر يفرض نفسه على الأشخاص من خلال التواطؤ مع كل ما

يحيط بهم سواء من طبيعة أو محيط اجتماعى واقتصادى مغلف برائحة سياسية نتنة، هل يمكن أنْ تقضى حياتك فى اقتفاء الأثر لحلم به غرابة الإنس والجن؟

****

«ص» فتاة يافعة، فينيقية الشكل، رومانية الجسد ، بربرية الطباع، منذ فترة وهى تحلم بشهرزاد تروى لها حكايات جديدة عن هوامش الأرصفة بشوارع الدولة الملقبة بالخضراء، وإذا بها فى الحلم - المكررحرفيا بحذافيره أغلب الليالى - تسكن أحد الأرصفة بولاية ما غير محددة، تقرأ كفوفًا عديدة ، و بمجرد أنْ تغمض عينيها أثناء الحلم ترى الغياب، وتصير ذاكرة من لا ذاكرة له وكأنها بيت من الشعر لأبى القاسم الشابى أو المتنبى كتبت له الحياة أبد الدهر، وبنهاية الحلم تأمرها» شهرزاد» بالرحيل، ولم تحدد لها أين؟

الصدفة الغريبة هى المحرك لمصير الفتاة التى تدعى «ص»، فيوم رحيلها هو اليوم المفترض أنْ تتزوج فيه، وأن تصبح كباقى نساء الأرض، لها بيت ورجل ومن بين فخذيها تأتى حياة لأطفال قُدّر لها سلفًا أنْ ترتبط بهم للأبد بمنطق الأمومة والطفولة، ولكن رغبتها فى الهروب بداية فاقت رغبتها فى اللهاث وراء الحلم -الشهرزادى، باختصار الحلم ورفضْ الزواج، الإثنان معا اتفقا سلفًا على رسم حياة أخرى لفتاة تعتقد أنه قُدّر لها أنْ تصبح عرافة فى زمن قتلت فيه النبوة والتنبوءات،

باتجاهها للجنوب، وفى عاصمة الشمال قابلتْ صدفة العجوز–عابر الشرق إلى الغرب– وبمجرد رؤيتك للعجوز، تشعرأنه ولدهكذا بلحية بيضاء محففة، وابتسامة هادئة تذكرك بالبحر، قابلته «ص» برصيف الشارع الكبير لتلك العاصمة التى تفتخر بها البلاد، كانا أمام مقهى سيدي شعبان بسيدي بوسعيد أشهر المقاهي التونسية، التي تعتبر أشهر عنوان لزوارالبلاد من السياح الأجانب أوأبنائها العائدين من الخارج.

الرصيف أعادها للحلم الذى لم يفارقها لحظة ، رأت شهرزاد تحوّم حول المبانى الأندلسية قادمة من البحر وتقترب من خلف العجوز قاطعة الشارع الرئيسى أمام المقهى وهى مهمومة باختراع حكاية جديدة لليل جديد ، هرباً من السياف ونزوات ملك عجيب، العجوزلم يدع للفتاة فرصة للتفكير، ولم يدع لها مهرباً غير التقرب منه ومصاحبته لشهرٍ، فالحزم فى كلامه وأفعاله مغرٍ بقدر كبير، فأولى كلماته لها كانت كاشفةً، لدرجة أنها أحسّتْ أنه صوفى عابر سبيل أو رجل أبله حباه الله برؤية دواخل النفس البشرية.

شئ مربك عندما تُقابل إنساناً صدفة، وتكتشف أنه يعرف ماذا تفعل وماذا ستنوى فعله، سألها العجوز فى هدوء ومكر:

– إلى أين تهربين أيتها البريئة الصغيرة؟

وعندما لاحظ العجوز أنّ الجسد الممشوق الواقف أمامه قد تعرى وفُضحَ، رغم هالة الكبرياء، التى تحيط به من سؤاله المباغت أضاف:

– المدن كالنساء يا طفلتى و»ولاية سيدى بوزيد «أتعسُ النساء أقصد المدن.

قذرة هى الثوانى عندما تعجزعن مساعدتك فى التفكير، العجوز يعرف أنها هاربة ومسكونة بحلم ما، ولكن ما علاقتها بولاية «سيدى بوزيد» التى مرّتْ بها ولم تتوقف فى الماضى، فالولاية بالنسبة لها مجرد اسم، ليس أكثر ولا أقل، الفتاة فى حيرة والعجوز بوجهه فرحة الكشف، بعد دقيقة من تبادل النظرات بين منتصر ومهزومة، ترفق بها المنتصر/العجوز ودعاها لفنجان من الشاى، احتستْ «ص» كأس شاي بنكهة البندق على الطريقة المألوفة لها أيضًاً ، وحرص هو على مساعدتها فى استعادة الثقة بنفسها .

(٢)

انتظمت لقاءاتهما لمدة شهرعلى أرصفة عدة ، ووسط أشخاص لايتحدثون إلاّ عن الوعود الوهمية للرئيس الجديد، أخبرته بكل شيء عنها وعن أحلامها التى تكررتْ مؤخراً بصحبة «شهرزاد»، وأخبرها هو بأنه رحالة، يجوب الشمال والجنوب والغرب والشرق، على حد قوله تماماً عندما همس لنفسه بجانبها ذات مرة فى مونولوج داخلى واضح محدد :

– اتبَعْ الشمس واسترحْ فى ظل القمر..كل الفضاء منزلى.. السحب والنجوم عائلتى، أعرف مكان نومى من خلال وصولى لرائحة الحشائش أو من خلال رائحة جدار يعانى من الوحدة . لى فى كل بلد أطفال ولى بكل طفل لحظات من الصفاء والجنون، فقدتُ فى البداية طفلا وزوجة وطردونى من بلدتى هناك قرب الجبل بشرق الشمال، فقررتُ أنْ أجوب العالم انتقامًا، وأهبه أطفالا عدة...فعندما تُهزم فى معركة يتوجب عليك نشر الهزيمة بكلِ المعارك القادمة بهدف المراوغة وبغرض أنْ تصبح كل هزائمك هى المناعة لكل انتصاراتك، العالم مفتوح للمغامرة والجنون يا طفلتى ، فقط مطلوب منكِ أنْ تمسكى أول الخيوط وآخرها، وخيط الترحال هو أول الحياة ونهايتها.

فى كل مرة يتحدث العجوز. تنصت له الفتاة جيدا ، أحيانًا تراه آخر

حكماء هذا الزمان، وأحيانًا أخرى تراه شخصًا مدمنًا للنساء وللمتعة، وكثيرًا من الأحيان (وهذا هو أغلب الظن) تسمعه بحثا عن إجابات لأسئلة داخلية كبيرة.

(٣)

تعبت «ص»من التذكر وغفت عيناها، كانت الشمس تتوسط الصحراء، وتعرجات الرمال وَنَسٌ على مرمى البصـــــر ، كل شيء ساكن وطبيعي جدًا، ولكن بعضًا من صدى أصوات بعيدة بدأت فى اقتحام غفوها واقتحام صمت الصحراء، الأصوات تتزايد وتنحصرفى همهمة واحدة تشير لأنفاس مقطوعة من كثرة السير، الأصوات فى اتحادها مثيرة وملغزة جدا، وقفتْ «ص»ونظرتْ فى كل الاتجاهات ولم تلحظ شيئا، كررتْ كلمة العجوز:

– عليكِ الإنصات لصوت الرمال يا طفلتى .

انحنت الفتاة ، ووضعت أذنها على الرمل وحددت الإتجاه ألا وهو الشرق، ثم دبّتْ قشعريرة فى بقعة الرمل أسفل أذنها فأدركت أنّ الرياح ستقوم أوهى تحديداً فى الطريق، نظرتْ للسماء وركزتْ فى حركة السحاب ففهمتْ أنّ حركة الرياح سريعة وعنيفة، أدارت نفسها لجهة الشرق وتجهزت عندما أحكمت الغطاء على الرأس والوجه وتركت فقط عينيها بحرية مثل ساكنى الصحراء . كل تلك الأمورعلمها إياها العجوز منذ عامين.

بدأت الريح فى الاقتراب وتحركت الرمال فى البداية وكأنها تحتفل بقدوم العُرس، فإذا «ص» تجلس القرفصاء وتستعد لمتابعتها، الريح

تهجم والأصوات تتعالى والسراب يتزايد، الفتاة تغوص فى عاصفة رملية ألوانها تتراوح ما بين اللون البرتقالى والأحمر والأصفر، ولكنها رأت مالم تكن تتوقعه مطلقاً، نعم شىء ما يحدث الآن وله دلالة إذا أخذنا بالعلامات والدلالات .

رأت الأصوات، حيث الريح تحمل فى طياتها عددًا من النساء متشحات بالسواد فى جلباب طويل وبطرف كل جلباب يمسك طفل وكأنّ النساء بأطفالهن قد جئن من الجنة، الحقيقة أنّ الفتاة ذات السبعة والعشرين عامًا الآن ، خطر ببالها «الولدان المخلدون».

الغريب أنه بنهاية سرب النساء ، كانت هناك سيدة وحيدة تختلف عن كل النساء اللاتى سبقنها فى لون الجلباب ، السيدة ترتدى اللون الأزرق والطفل بطرف جلبابها بلا ملابس وبيده برتقالة ، وخلفه كم هائل من أشجار الفاكهة الطائرة .

أيعقل أنْ تحمل الريح نساءً وأطفالاً وأشجارًا !!!؟

برؤية ماهوفى مستوى قدم الطفل وأمه، يسهل تصديق أى شىء، حيث تتسابق أوراق ، كتلك التى تسقط فى الخريف ولكن فى لون الربيع لتكون ممشى للطفل وأمه، بآخرالأشجار، كان هناك صليب كبير به البرتقال مصلوب ومشكل على هيئة رجل كالمسيح ، الفتاة بصعوبة تتابع رحلة السرب الذى بدأ برمال ثم بنساء وأخيرًا ببرتقال مصلوب ، الطفل التفتَ للوراء وأسقط البرتقالة التى كانت بيده وهو يبتسم فوقعت أمام الفتاة واختفى كل شىء، البرتقالة كانت زاهية

الإصفرار ومسام قشرها تكاد لا تلحظ ، رائحتها تفوح بالنرجس وممزوجة بالياسمين والبرتقال، اختفت الريح والنساء والأطفال وصعد من الأصوات صوت لطفل يقول:

– عليكِ الحضور حيث أكون.

ثم سرتْ هزة أشبه بالزلزال بكل الصحراء ، ونجت الفتاة من موها بمعجزة ما، وعلى إثرالهزة وقعت صدمة ل «ص» كبيرة ومؤثرة فإذا بها تفقد الوعى ثلاثة أيام كاملة.

وعندما أفاقت لم تجد البرتقالة ، وإنْ وجدت آثاراً لهزة تعلن عن نفسها فى الحُفر التى صنعتها بالرمال ، وكأنّ تعاريج الرمال نداء قادم من عمق معدها، نداء يهددها بالمأكل أوالموت وعليها الاختيار!!!؟

هناك دلالات للإنسان المحظوظ، منها النجاة من الموت برغم الإعصار والزلزال ومنها أيضًا أنْ يجد سر حياته أسفل قدميه دون التحرك خطوة واحدة، هكذا وجدت «ص» معجزها فبمجرد أنْ حركت يدها وجدت ثعبانًا يأكل عقربًا، وبلا تردد أكلت الفتاة الاثنين وقررت الرحيل للبحث عن طفل البرتقال، وبينما هى تسيرعلى إثر دقات قلبها وإحساسها، قفزت إلى ذهنها (القفزة فاقت انقضاضها منذ دقائق على الثعبان والعقرب بفمه) جملة العجوزعابرالشرق إلى الغرب :

– المدن كالنساء يا طفلتى وأتعس المدن»سيدى بوزيد».

(٤)

كثير هو الخلط ما بين «سيدى بوسعيد» وبين «سيدى بوزيد» والفرق بينهما هو كالفرق بين امرأة ملكت كل الحظ فى كفيها وأخرى خاصمها الحظ حتى فى الحلم، «سيدى بوسعيد» لها زهو العواصم وفجرها، أما «سيدى بوزيد» التى حطت بها الفتاة الآن، لهاجس داخلى، من تكرارالعجوزلاسمها فقط، تغوص فى الفلاحة كالغريق، وها هى العلامات تساعد «ص» مرة أخرى، فبأول لحظة لها بالولاية يهطل المطر، وكان الغروب أيضًا، الموسم هو الصيف، وعلى حافة الولاية حقول الخضروات والزيتون، لذا قرّرتْ الفتاة الإستحمام أسفل المطر، كانت منتشيـــــة، فهاهوالجسد يعرف طعم الماء بعد عامين، هاهى المسام تبتلع حبات المطر، وشعرها آن له الأوان أنْ يرى الهواء وحمرة الشمس عند المغيب، ولكن يظل طفل البرتقال، مسبب الأسباب، وخاطف العقول بالنسبة لها، الآن الطفل يستحوذ على تفكيرها أكثرمن العجوز، ومن المطر.

هل ستجده هنا فى سيدى بوزيد أم أنّ المطر يخدعها وأنّ تكرار اسم الولاية من جانب العجوز مجرد هذيان؟

جلست الفتاة و يدها تسبح فى خصلات شعرها الأسود، الليل يسدل ستائره على حقول سيدى بوزيد، والعين لا تصمد فى المقاومة، ذهبت الفتاة فى نوم خاطف قلق، ورأت شهرزاد فى أول منام بسيدى بوزيد ومعها العجوز، شهرزاد تبكى، وتنطق كلماتها بصعوبة فتقول بصوت

متقطع :

– لم تعد هناك حكايات بالشرق أوالغرب، طفتُ البلاد بلا جـــــدوى ، الحكام والملوك سرقوا الحكايات وخبئوها فى صناديق، وعلى الصناديق حراس ببنادق وأسلحة، لم يعد للسيف وجود ولا للسياف.

العجوز لاينطق ويحاول بيده التخفيف عن شهرزاد والفتاة عاجزة عن الكلام، كلما حاولت إخبارهم عن طفل البرتقال عجزت. وانتهى الحلمُ بأنْ تحولت شهرزاد لعصفورة لها بقعة حمراء فى أم رأسها، والعجوز تحوّل لسلحفاة صغيرة .هنا استيقظت الفتاة وهى حزينة وقررت الدخول لشوراع الولاية.

(٥)

كانت الفتاة على قدر من الذكاء، لتدرك أنه إذا قدر لها البقاء هنا أو فى أية ولاية أخرى، ستتعرض لمضايقات خاصة وأنها جميلة الملمح والقوام، لذا تعاهدت مع ذاتها على فعل شىء بهذا الجسد بغرض حمايته ممن حولها ولكن الحقيقة لم تقرر ما هذا الشىء الواجب فعله ومتى؟

****

تحركت «ص» مع نسمات الليل تكتشف المعتمدية التى هى بـــــــها الآن. كانت منازل الحى الغربى الفقير، منازل لاترتفع طوابقها ويبدو فقرها واضحًا بالمقارنة بمبانى الشمال.

المنازل لها أحواش، والطرقات ما بين ضيقة ومتسعة، شوارع تنساب على بعضها البعض مثلما تسكب قليلا من الماء فتتشعب الفروع لتلتقى ممثلة بقعة مبللة على أرض خواء.

تعاقب الليل والنهار، ولم تجد الفتاة طفلَ البرتقال، ماذا ينقصها من الأفعال بعد؟ وقفت ساعات أمام مدارس وأمام شوارع يلعب بها

الأطفال، ذهبت لساحة السوق ، عرفها كل سكان الولاية وكانوا لطافاً معها، البلاد اسمها مشتق من المؤانسة كما يقول «ابن خلدون».

ذهب زمن الثعابين والعقارب ، وبدأت تعود لطعم الكسكس باللحم، ولكن الطفل تائه، والبحث عنه يشبه أنْ تنقب على إبرة فى كوم من القش، اليأس يقترب مصحوبًا بالإحباط والرحيل- لولاية أخرى- ينخر فى رأسها كالصداع المزمن ، تشككت فى العلامات وفى القدر وفى كلمات العجوز، هل عليها أنْ تعود لتكتشف أصوات الرمال ثانية، أم أنه كتب عليها الرحيل وأنّ رغبتها فى دخول دائرة العرافات مسدودة ووهمية.

الحقيقة أنّ الفتاة لاتعرف ما قُدر لها، وهى لن تصبح عرافة ولن تكون هكذا يومًا ما، هى ستتبع طفل البرتقال فقط ، وهو من سيخط حياتها من جديد، تلك الحياة التى توقفت منذ هروبها، لحظة أنْ قرّر والدها استعادة منصبه - الذى فقده برحيل «بورقيبه العجوز»- عن طريق تزويجها لأحد المقربين من الرئيس الجديد «بن على»، ولكن الفتاة «ص» مثلها مثل ملايين البشرعلى وجه البسيطة ، يعتقدون فى أشياء ويتمنون تحقيقها ، وتمضى الحياة عكس كل هذه الأشياء دائمًا.

****

شهور مضت ولا مفر من الأمل، وفى صباح خريفى، محمل بريح

خفيفة تنقل الأخبار والقمامة من مكان إلى مكان ، حيث الفتاة تجلس بحافة الرصيف وعلى مقربة من ساحة السوق، فإذا بسيدة تعبر وفى طرف جلبابها طفل يقترب من الخامسة، الطفل نظرإلى الفتاة وتوقف، وبسبب شهرة الفتاة فى المكان توقفت السيدة، الطفل يده تحمل العلامات حيث البرتقالة بيده، والسيدة تحمل قدرها فى يدها حيث يد الطفل الأخرى تتشبث بإحدى يديها، ألقت السيدة تحية الصباح وأجابت الفتاة بابتسام ، وباقتراب الطفل من الفتاة الجالسة ، ألقى برتقالته فى حجرها فترنحت البرتقالة كسكران ، تارة على الفخذ اليمنى وتارة على الفخذ اليسرى، واستقرت فى المنتصف ، لابد من الإشارة هنا إلى أنّ لحظة إلقاء الطفل بالبرتقالة ولحظة استقرارها بحجر «ص» كانت طويلة وكافية للتذكر من جانب الفتاة، حيث تذكرتْ سرب النساء الذى عبرمع الريح، وتذكرتْ البرتقال المصلوب كالمسيح وكذلك تذكرت الطفل نفسه والذى لقبته منذ هذه اللحظة بطفل البرتقال، عادتْ الفتاة من تذكرها عندما سألتها السيدة :

– هل لكِ برؤية كفه من فضلك؟

هاهى رغبتها تتحقق، وهاهو أول مطلب بقراءة الكف وعلى يد من ؟! يد من بحثتْ عنه طويلا ..لذا أجابت فى سرعة :

– نعم..أعطنى يده

ثم نظرت إلى الأم وسألت :

– بماذا تنادين طفل البرتقال يا سيدتى؟؟

أجابت الأم ولم تتوقف أمام كنية ابنها الجديدة ، فالأم تتعامل مع العرافات على أنهن هكذا ينطقن كلامًا لا يفهمه إلاّ هن :

– أنا «منوبية» وهو»محمد البوعزيزى...طارق محمد البوعزيزى.. محمد بسبوس» .

كانت الأم واضحة فى قول اسمها والاسم الذى يحمل الاسم الكامل والاسم المختصر وكذلك اسم الدلع، الفتاة – بينما هى مشغولة بالنظر لعين الطفل والتوغل فيها بحثًا عن مكنون هذا الذى يحمل تقريبا الخمسة أعوام على كتفه .كانت تتساءل بينها وبين نفسها عن هذا التناقض الذى يتضح الآن ، فالطفل اسمه محمد وخلفه فى السرب كان الصليب والبرتقال مصلوبًا!!!

كم مُربك لها هذا !!

حاولت «ص» الهروب من التفكير عن طريق تحسسها لكف الطفل، ولكن يبدو أنّ التناقض بدأ فى مصاحبة أفكارها كحال التصاق الشعر بفروة رأسها، يد الطفل عكس أيدى كل الأطفال، بها خشونة غريبة، والتعاريج بها كتعاريج الرمال بالصحراء توحى بالونس والاسترخاء .

انتظرت الأم نطق الفتاة بجمل محددة والطفل بدأت عيناه تنظران مؤخرة رأس الفتاة المغطاة بطرحة سوداء ، فتأملها من أسفل العنق لمؤخرة ظهرها التى تلمح بسهولة، نتيجة بعدها قليلا عن الحائط الذى تستند إليه بسبب انحنائها على كف محمد البوعزيزى .

محمد كان بلباس يعود بك لتراث البلاد، نعم هم الأطفال القادرون على حمل التراث، فمن النادر أنْ تجد شابًاً أو كهلاً يرتدى الزى الوطنى، فقط قد نذكر بعضًاً منه أثناء حديثنا فى صحبة ما بمكان ما، رفعت الفتاة رأسها ونظرت للأم قائلة فى هدوء:

– سيخاصمه الماء قبل غروب الشمس وسيصاحبه الماء عند كل أذان..وحقول البرتقال ستتبعه، والمكتوب يا سيدى يختفى الآن فى الكف الصغيرة الخشنة، وقًدّركِ الله ياسيدتى وقًدّرنا معكِ على احتمال المكتوب، لكِ طفل جميل فليرعه الله.

بالطبع لم تكن كلمات العرافة المبتدئة كافية لوالدة محمد ولم تكن سبب الفرح لمحمد ما عدا جملة «حقول البرتقال ...» فبرغم عدم فهم الطفل لكل كلام «ص» ، إلاّ أنه ابتسم تحديدًا عند نطق الفتاة لهذه الجملة.

(٦)

وضعت الأقدار الفتاة فى مهب الريح وانصرفت عنها لتتركها بمفردها فى فضاء لانهائى ، وأصبحت «ص» كمن ينظر نفسه فى المرآة بحثا عن المجهول الكامن فيما وراء حجمه المنعكس أمامه بتلك المرآة، «ص»هنا حيث الوسط الغربى للبلاد، وتحديدًا فى بقعة صغيرة تشبه «ماكوندو»(مدينة المرايا) فى «مائة عام من العزلة» لماركيز، حى فقير منازله تتشابه فى العلو والشكل، حى النور الغربى يبدو كنهد تنتهى استدارته بحلمة صغيرة ملتهبة، فهناك فتحات تنبع من ناصية لأخرى تصلح للقب شارع أوزقاق، «ص» تتساءل كيف يحمل هذا الحى تناقضاته فى ذاته هكذا!!

الاسم هو «حى النور الغربى» والنور لاوجود له بالأساس أصلا!!

أين هو النور بمعتمديات متجاورة ومسيجة بغلاف من التهميش المتعمد من قِبَل وعود قالها سلفا «الحبيب بورقيبة» ثم أعاد صياغتها مرة أخرى «بن على» – قائد الإنقلاب الطبى – تحت مسمى التغيير؟

همست الفتاة بينما هى تسير شاردة فى الحى و طرف جلبابها الطويل الأسود يصنع ونسًا خفيفا لحظة لمسه للأرض الملئية بتعرجات تثبت بعدها كثيرًا عن المدنية الأسفلتية التى تشتهر بها العاصمة :

– لماذا ولدت هنا كل تلك الوجوه بالخطأ ؟ ماذا فعلت وفيما

أذنبت؟

ثم غاصت فى صمت وحزن لدقيقة ، عادت بعدها لتنطق باسم هو «إمبرتو كال» ونطقت بطريقة شعرية متمكنه أبيات لإمبرتو كال هى:

«البعيد
فى هذه البلاد الصغيرة،
كل شيء بعيد جدًا ،
القوت ،
الأبجدية ،
الثياب...»

وصلت الفتاة لخارج الحى، حيث الطريق الذى يصل البلدة ببلدة أخرى لنفس الولاية الأم ، جلست أمام حقل من الزيتون، وتذكرت العجوز عمدًا، لكى تهرب من سيطرة «إمبرتو كال» عليها، الهروب كان لأسباب ستتضح فيما بعد، فالأسرار كلمة وهمية أعطاها البشر قدرة ما، نتيجة لعجزهم عن مواجهة الذات، ليكن.

فالمهم الآن هو أنّ الفتاة تذكرت العجوز والصحراء، ونطقت:

– أول الحب.

الحقيقة أنّ العجوز ذات مرة أخبرها بأنّ الجمل يمرض بمرض الهيام ، فيحيد عن طريقه بالصحراء، ثم يسقط بعد فترة ليموت وحيدا أسفل الشمس، كان محقا العجوز، فنحن كالجمل نهيم، ونمرض بالعشق ،

لنسقط فى غياهب عواطفنا ومشاعرنا بلا رجعة للأبد.

لماذا تذكرت الفتاة ذلك تحديدًا ولماذا هربت من «إمبرتوكال»؟ ولماذا تتناسى اسمها؟ وأين هو طفل البرتقال الآن من ذاكرتها ؟

(٧)

ملحوظة لابد منها وهى أنّ «ص» رحلت من الشمال فى منتصف العشرينات من عمرها، وفيما وراء تلك السنوات، كانت لها أشياء خاصة وحياة بعينها، نعم هى تعمّدتْ النسيان والتنازل عن اسمها ثم الرحيل، ولكن هاهو سى «زياد الهانى» الذى – كما كانت تحب منادته – يحاصرها الآن بأبيات قرأها عليها مئات المرات، زياد يقتحمها مثلما اقتحهما من قبل سرب النساء بالصحراء، هذا الزياد الذى يحب الشعر والرواية، كان يدرس فى جامعة العاصمة مثلها، ووقعت قلوبهما كجملين أصيبا بمرض الهيام فى وسط الصحراء بعد الضحى بقليل، زياد اختفى فجأة ثم عادت الآن ذكراه بكرامة وكبرياء ، هوعلمها كيفية إلقاء الشعر، وكثيرًا ما أعارها روائع الكتب، وهى علمته – عن غير قصد – أنّ اختيار الموت أسهل من اختيار الحياة ، كانت تدرس هى علم الإجتماع ، وأحبت كثيرا «ابن خلدون».

****

ذات صباح ، قرأت الفتاة خبرًا بالجريدة يشير إلى عثور الشرطة على جثة لشاب جامعى بأحد الطرقات الفاصلة بين العاصمة ومدينة أخرى،

كانت الجثة لزياد الهانى، ثم تأكدت «ص» من أنّ والدها – ذا المنصب السياسى – هوالذى أمر بقتل الشاب حرصًا منه على جعل ابنته بعيده عن هؤلاء الذين يطلق عليهم الأب مقولة «متسلقى الفتيات من أجل صعود طبقى».

زياد تعود أصوله لبلدة من الوسط الغربى تدعى «الرقاب»، ذهب للعاصمة، وسكن فى «حى حمام الشط»، يدرس المحاماة ويحلم بالدفاع عن أسرته وعشيرته عندما ينتهى من دراسته، يحب الأدب ويؤمن بالأفكار اليسارية، والآن هو فى عداد الموتى، بسبب فتاة أحبها ووالدها أحبّ ازاحته من الوجود، يظن كل منا بأننا نمتلك القدرة على الهروب من الماضى أوإعدامه ، والفتاة مثل باقى البشر ظنت هكذا، ولكن الآن تتلاقى كل الخطوط المتعرجة ، وتقذف بنفسها فجأة أمام الفتاة لتقدم الماضى والحاضر وكأنهما توأمين لا يمكن الفصل بينهما بأية حال من الأحوال، طفل البرتقال من ولاية «سيدى بوزيد» وزياد من «الرقاب «وهى تابعة لنفس الولاية، العجوز يخبرها بمرض الجمل وأول العشق وهى عشقت زياد ولم تخبر العجوز بأنها كانت مصابة بالمرض قبل لقائه، أشعار «إمبرتو كال « تسيطر على أفكارها، بل و الأغرب أنّ تلك الأشعار تصنع المزيد من الضغط على ذاكرتها المختفية فى قاع رأسها عمدًاَ، فعندما قررتْ التخلى عن اسمها استعانت بأبيات من شعر»إمبرتو كال» وعندما تحن الآن لاسمها تستعين بنفس الأبيات ، يالها

من مصادفات ويا له من براح تمتلكه تلك المسماة بالحياة!!

****

الشمس إرتدتْ اللون الأحمر وانحسرتْ أشعتها – صارت كشجرة برتقال فى الأفق تزدان ببرتقالة وحيدة مفتوحة البطن وتطل منها الألياف الحمراء دلالة على تمام نضجها الكامل – وعادت للجهة الأخرى من الأرض ، وبدأت السماء فى المطر، عندئذ صرخت الفتاة بأعلى صوتها كالمجنونة مرددة شعر «إمبرتو كال» قائلة:

«طردتُ اسمك من بالى
وتركته فى الدغل.
لملمه الهواء وحمله إلى قاع الوادى
وأنا بدأتُ أنسى.
لكنه ارتطم فجأة بالصخر
وارتدّ نحوى:
أخذ المطر يغنى
وعاد اسمك إلىّ باكيا»

كانت الأبيات من قصيدة للشاعر الهندى الأحمر «إمبرتو كال»، ثم صرخت فى مواجهة القدر الذى هو كامن فى بطن السماء معلنة اسمها الحقيقى :

– اسمى، هدى المكى..هدى أنا ..وهوزياد الهانى

انحدت الصرخة مع آخر السماء وانتفضت نجوم معلنة «مضى قليل من الوقت» .

(٨)

القدر يقود المصائر بلا هوادة نحو كهوفها التى نظن أنْ لن تطأها أقدامنا يومًا ما، فى مترل «منوبية» والدة محمد البوعزيزى، فوق المترل تحوّم طيور بأشكال غريبة، أشكال لاتعود إلى قرطبة ، ولا تعرف رائحة العرق المخلوط بطعم البرتقال، و تحوّم أيضًاَ أصوات تأتى من كلب يعوى فى مواجهة نقيق لضفدع بمكان ما ، وبداخل المترل من شرفة بها كسور وشروخ يتسلل ملك الموت ، ليعود بروح الأب- هذا العامل منذ ولادته إلى لحظتنا هذه- ليترك «محمد بسبوس» مع ثمانية من الإخوات هكذا فرادى وسط الحزن والخوف من الغد ، الأم تربط ما بين الموت وبين رؤية العرافة المبتدئة وتعلن تشاؤمها الواضح، الغريب أنّ محمد فى هذه اللحظة ووسط الكارثة، يدافع عن العرافة بسبب جملة «حقول البرتقال».

يتزايد فى الدارالبكاء والصراخ، الأخ الأكبر» سالم» – الذى يكبر محمد بأربع سنوات – يشرع فى قراءة القرآن للجسد الفاقد لآماله وذريته والذى لن يعمل بعد الآن، الفتاة /العرافة المبتدئة بمحض الصدفة خلف جدار البيت تسمع كل شيء ويحزنها وجهة نظر الأم فى لقائهما الصدفوى بالصباح، عائلة محمد تعود لعشيرة/قبيلة «الهمامة»، وللأب أخوة وأخوات، وعامر – الذى هو عم محمد وقد جاء صدفة – يقترب

من باب الدار ويلمح الفتاة ولا ينطق، ثم يدخل ، محمد يخرج بهدف الإعلان عن موت والده، لاتراه الفتاة بينما هو يراها ولكنه لايتوقف، فقد كان يجرى كحصان جريح، وخلفه العصفورة ذات البقعة الحمراء برأسها والسلحفاة .

(٩)

قرّرتْ هدى المكى – تلك التى كانت تدعى «ص»- العودة إلى نقطة الإرتكاز، حيث ضرورة وضع حل للإقامة بحى النور الغربى دون مضايقات من أحد، لذا يتوجب عليها اختراع حاجزًا بينها وبين أية نظرة تستهدفها كامرأة، ولكن هدى تحت تأثير رغبتها فى تطهير ما تبقى فى عمق ذاهًا من شعور جارف بالإثم- كانت قد عاقبت نفسها من قبل بالرحيل وهجر أسرهًا للأبد- لذا توجهتْ قبل تنفيذ الحل الكافى لوجودها بحى النور الغربى إلى مدينة الرقاب، التابعة أيضًا لولاية سيدى بوزيد، حيث موطن حبيبها المقتول – بيد أبيها- « زياد الهانى».

*****

وصلت هدى مدينة (الرقاب) مع شروق الشمس، وتعمّدتْ الوصول إلى هناك سيراً على الأقدام ، قادهًا امرأة لمنزل زياد، تدرك هدى أنه قد مرّتْ سنوات على رحيله ، وأنها بالطبع ستسبب ألمًا لأهله بالكلام عنه، لذا أعدّتْ خطة فى عقلها الباطن لاقتحام أسرته، اتضحت عندما أخبرهم بأنها أخت لصديق قديم دَرَسَ وأقام معه بنفس الدار فى حى حمام الشط بالعاصمة، الخطة نجحت وتبادلت الأسرة معها الحديث، الذى حمل فى طياته أكثرمن ثلاثين مرة تكرر فيها اسم زياد، الأسرة

كباقى أسر الوسط الغربى للبلاد، تغوص فى المجهول، بعد فترة تقاس بالساعات أحضرت عبير الأخت الصغرى لزياد صورًا له، ووضعتها فى حجر هدى ، ولكن هدى لم تجرؤ على النظر فيها، ولاحظت عبير ذلك ولم تعلق، أخذها الأخ الأكبر لزياد والذى يعمل فى مقهى صغير بالقيروان لغرفة زياد، كانت الكتب المرصوصة بجانب الغرفة أوضح من السرير الذى تركه زياد لأخته عبير، لمحت هدى كتابين ، الأول لإمبرتو كال والثانى كان لابن حزم الأندلسى وهو «طوق الحمامة المفقود» وطلبت الإحتفاظ بهما فوافق الأخ وهو يعقب هامسًا:

– ليت ابنة المكى تعرف الطريق لديارنا.

سألته دون أنْ تعلن أنها بالطبع عرفت الطريق وأنها هنا فى غرفته:

– الميت لايعود ولكن الذكرى هى من تعذب الضمير، ألم يحدثك زياد عنها ؟

أجاب :

– محقة أنتِ ولكنه مات بسره .

الأخت الصغرى تدخلت فى الحديث وأخرجت هدى من حمرة الخجل ومن سرها الذى كاد أنْ يفضح نفسه بسهولة، ومن الواضح أنّ عبير تعرفت على هدى التى عشقها زياد والذى قتله والدها ، ولكن بمكر النساء أخفت ذلك عن أخيها الأكبر.

****

تركت هدى مدينة (الرقاب) والكتابين بيدها والرأس يعتصره الأفكار، وتحسّستْ السكين وبعض الخيط وبعض الإبر متنوعة الحجم، تلك الأشياء التى استعارتها من عبير بحجج وهمية، كانت خطاها تتجة للحقول على حافة حى النور الغربى، وصلت و دخلت حقل من الخضر واستقرت به أرضًا ، طافت فى مخيلتها مئات من القصص عن نساء حَمَيْنَ عذريتهن بطرق مختلفة، كارتداء بنطلون حديدى عند النوم ، أو بتشويه أجسادهن بقصد الشفقة التى هى أحيانًا أقوى من الخوف فى نظرات البشر ، ولكنها كانت تنتوى طريقة محددة وواضحة، وهى إغلاق الباب الذى تأتى منه الرياح، بهدف صنع حائط كجدار برلين أو كسور الصين العظيم، مانع يقف أمام طبيعة الخلق ، لذا أصرّتْ على إقفال تلك الفتحة التى تعلو ما بين فخذيها والتى هى مقصد كل رجال الأرض ، أخرجت السكين وهنا ظهرت العصفورة ذات البقعة الحمراء فى أم رأسها والسلحفاة دون أنْ ينطقا بحرف، كانا كمتفرجين فى مسرح مقفول، وهدى تحولت لسحلية صغيرة تنزلق من جوف ثعبان ، أصابه عثر الهضم فجأة ، فكتبت لها الحياة من جديد ولكن ماهى تلك الحياة الجديدة ؟ وإلى أين تتجه بها طرقات تلك الحياة ؟ يحلم البشر بالوصول لأراضٍ لم يعدهم بها أحد – على حد قول ماركيز– لذا فكرت هدى/ السحلية الصغيرة بلحظتها الآنية، هل هى لحظة محاسبة الذات ، أم لحظة الولادة من جديد وسط حقل من الخضر؟هل مايحدث لها الآن مقدر لها سلفًا، أم أنها تخوض بحرمن السادية– العجيب والمخلص فى آن واحد

– نتيجة مقتل زياد ونتيجة لما قالته والدة طفل البرتقال عنها بعدما مات زوجها ؟ تدرك هدى أنها تتحرك بفعل قرارات سريعة، تراكمت تلك القرارات طبقة فوق طبقة وأصبحت كجدار خرسانى يصعب أن تدق به مسمار ، لذا بدأت هدى فى تشويه منبع الحياة بالمرأة، وكلما هبّتْ يدها بتشريح فتحتها، كلما زاد البرق بالسماء، واصدمت السحب ليسقط المطر الخفيف، اليد تذبح رحمها وآلاف الحكايات تدور حولها، بدءًا من تفاحة الجنة ونزول آدم وحواء الأرض مرورًا بقابيل وهابيل ووصولا للإمبراطور «كين شين هوانج «، نعم تقول الأسطورة الصينية أنّ نهاية الأرض بحافة البحر، ولكن هاهم جنود بحرية الإمبراطور «كين» لا يعودون بنهاية الأرض وإنما بكم من الحكمة والمرض وبرسائل تفيد بهجوم قادم فى الأفق ، لذا يأمر «كين شين» ببناء سور الصين العظيم وأيضا بصنع جيش من الطين هم محاربو» التيراكوتا» الذين تم دفنهم بانتظار موته هو الآخر لدفنه معهم حيث يكون للأبد فى حماية جيشه العظيم ، تغمض هدى عينيها خوفًا من رؤية الدم الذى يجرى من رحمها كشلالات نياجرا ، وترى فيما يرى النائم «آتون» و»رع « ويوميات الإلياذة و»أجاممنون» ، فى الحقيقة كانت هدى تحب قصة الإلياذة والأوديسا أكثر من حكايات شهرزاد، وكانت تحفظ سبب حرب طروادة عن ظهر قلب و تربط ما بين تفاحة الإلياذة وبين تفاحة آدم، لذا همست كمن هو فى كتّاب القرية أمام شيخ أعمى كهوميروس، يتلو آياته التى يحفظها عن ظهر قلب وقالت:

– لودُعيت ايريس «إلهة النزاع «لعرس «ثتيس» ترى هل كانت ستقذف التفاحة الذهبية التى كتب عليها «للأجمل» بين هيرا وهيروديت وأثينا ؟ ترى هل تُخمد حكايات الثأرلتصبح حرب طروادة حلمًا من أحلام اليقظة فقط ؟

****

لم تدر هدى أنّ تاريخ الأرض الآن بين يديها وكأنه فى غربـــال، كلما هزت هى الغربال كلما سقطت ملايين البشر البسطاء وبقيت بأعلى الغربال رموز وتماثيل مخلدة ، هدى تنتظر «أحمس» و«هوميروس» أو «أجاممنون» وبعض من «حوارى المسيح» أو «عصا موسى» لإنهاء الألم، أو وقف هذا الغل الفظيع الجاحد ، الذى يحرك يدها الذابحة لرحمها ، لم يسعفها مخلص ما!!.. بل على العكس رأت كمًا من الجرذان تتحرك كخلية من النحل هربًا من قط أسود يقترب من عمق الحقل ، معلنًا عن قدومه بموائه الخبيث، ثم أيقنت أنه يتوجب عليها الاستعانة بما هو ملك يدها الآن بعيدًا عن أحلام اليقظة، لذا استعانت بالتراب وبطرحتها وبسيقان الخضر حولها فى كتم الدم ثم بدأت فى الخياطة كطبيبة ماهرة، ونجحت فى التعافى من النزيف المتواصل ، استمر هذا الحادث شهرًا قمريًا ، كادت أنْ تفقد فيه الروح، الغريب أنها خلال الشهر وبمنطق الألم وغياب المخلصين فى هذه الدنيا العبثية وبدافع من الإصرار حفرت

حفرة تتجاوز عدة أمتار فى العمق، بداية الحفر كانت بدافع التهرب من الألم ، ووضح هذا عندما غاصت أسنانها فى باطن الأرض نهشًا، ثم واصلت الحفر نتيجة الإصرار على البقاء . فى الحفرة الكبيرة– كحال إمبراطور الصين – دفنت هدى الأدوات التى استعانت بها مع الكتابين والصور التى أهدتها إياها عبير– صور زياد– بالطبع قبل دفن الكتابين قد قرأتهما جيدًا وتقريبًا حفظتهما عن ظهر قلب وقرّرتْ التحرك وهى تجر وراءها عذريتها الأبدية والتى لن تفقد بعد اليوم مها طال العمر.

(١٠)

تحركت هدى لمترل «طفل البرتقال» بلا تردد أو خوف، عازمة على لقاء أمه ، والحديث معها، مدفوعة بقوة داخلية خفية بررت لها ما عزمت على فعله، بالفعل وصلت المترل، لحظة إنتهاء الضحى عندما بدأت الشمس فى صنع خيالات للأشخاص على الأرض ، لم يكن بالمترل غير الأم وأختها «راضية» التى تصغرها بعشر سنوات على الأقل ، كانت الابنتان ، الصغرى والكبرى نائمتين (الصغرى تصغر طفل البرتقال بعامين والكبرى تكبره بحوالى الثلاثة أعوام) والطفل المعاق «حسن» والذى يبدو أنه سيظل جنينًا للأبد بسبب زحفه نتيجة عاهته لحين الحصول على كرسى متحرك، طريقة طرق الباب ومناداة أهل الدار من الخارج ، تدل على أنّ الطارق لن يذهب إلاّ بعد أنْ ينتهى من رسالته ، الحقيقة أنّ الحظ حالف هدى بسبب وجود الأخت «راضية» والطفل المعاق، الاثنان كانا بمثابة الإسفنجة التى امتصت غضب الأم عند رؤيتها لوجه العرافة المبتدئة، أعلنت هدى رغبتها فى إطلاع الأم على سر، ولكن يتوجب الإنفراد بها، أخذها الأم لزاوية بالدار، وهنا أزاحت هدى جلبابها وأنزلت لباسها الداخلى الفضفاض وقالت:

– أنظرى هنا يا سيدة الدار، من الآن فصاعدًا أجُرُ هذه الأرض الخراب معى أينما حللتُ .

ذهول الأم من رؤية باب الحياة مقفولا بهذا العنف، جعلها لاتنطق

وإنما تحتضنها بحنوبالغ ، بالطبع كانت هدى بحاجة إليه الآن ، نصف ساعة مضت تبوح هدى فيها بأدق تفاصيل حياتها للأم، والأم تسمع وتغسل قلبها بالصابون كى يسع هذا القلب بجانب التسعة أولاد، مولودة جديدة بالتبنى هى هدى.

(١١)

– «الجازية»... امرأة حازمة، ناضجة كأوراق الصبارالبرى، تترك رغد العيش، لتهب نفسها فى تغريبة قومها اللانهائية، نعم هى امرأة مضحية.

هكذا انتهت الأم «منوبية» من سردها لحكايات السيرة الهلالية والتى اقتطعت منها ما تحن إليه فقط ، ألا وهو الجزء الخاص بالتغريبة الهلالية بالأرض الخضراء – تونس– عندما عبروا النيل الأبيض واتجهوا إلى غرب السودان ، ثم واصلوا رحلتهم إلى بلاد تونس لمحاربة المغاربة.

علقت «هدى /ص» على حكايات الأم :

– يصف «ابن خلدون»هذه الهجرة بقوله (انتقال العرب إلى أفريقيا، وعرفت أيضًا بالقيسية).

ثم ساد صمت بينهما، استطردت من بعده الأم بالكلام عن «الميلاد التاسع» كما أحبّتْ أنْ تلقب لحظة ولادة أطفالها التسعة، كانت هدى تسمع وعندما وصلت الأم لحكاياها عن ميلاد طفل البرتقال، التى أخرها الأم للنهاية بمكر، لعلمها أنّ هدى تنتظرها بلهفة، والحقيقة أيضًا أنّ الأم أجلتها أيضًا لأنها تراها من أغرب حكاياها ندرة وقوة، بدأت الأم بتنهيدة قوية، تستدعى الإنتباه أيضا، ثم قالت :

– قبل الولادة بدقائق انتابنى حلم غريب، كنتُ على حافة جرف بمنطقة جبلية، وكل النساء – ومنهن أنا – تخرج من أجسادهن ذيول

بشعر كثيف، ومن الأمام تتفرع من النهود فروع كفروع الشجر الحديث الولادة، بطون النساء شفافة كالزجاج، وحركة ما بداخلها يدعوك للنظر، كلنا كنا نسير، وببطن الجرف هناك انهيار كالذى يحدث عندما تصعدين جبل من الرمال ، نطوف كالحجاج، دون هدف أو عودة للوراء، وبمجرد أنْ انتهيتُ من الحلم ، فوجئت بأسفل قدمىّ، بمولودى يزيح بيده قدمى اليسرى خوفًا من دهسه، ولكن يده بها رجاء وليس عنف ، كنتُ أقف أمام حقل من البرتقال، أنتظر زوجى الذى دخل الحقل بهدف إحضار برتقالة ناضجة، كنتُ قد طلبتها منه أثناء سيرنا، وبسبب أنّ البرتقال لم ينضج بعد ، فقد تأخر زوجى قليلا نتيجة بحثه عن برتقالة ناضجة لحد ما، تصلح لامرأة تشتهى البرتقال وهى على وشك الولادة، الغريب أيضًا أنّ محمد المولود توًا، كانت عيناه صافيتين ومفتوحتين ، تنظرنى من أسفل لأعلى، وقبل أنْ أنحنى عليه، عاد زوجى وبيده برتقالة زجاجية شفافة كالماء وكبطون النساء فى الحلم، تبادل زوجى النظر مع ابنه الجديد، بينما أنا أجفف مكان خروجه.

بذلك تأكدتْ هدى من أنها على الطريق الصواب عندما أدركت أنه ليس عبثا أنْ تطلق على محمد «طفل البرتقال».

****

مرت الأيام والشهور، وبعض السنوات ، ساعدت فيها الأم هدى فى البقاء الأبدى بحى النور الغربى، وصاحبت الفتاة كل أفراد الأسرة،

وتابعت عن قرب محمد، كانت الأسرة تتشابه لحد بعيد مع كل الأسر بوسط البلاد الغربى، طفل البرتقال الذى تجاوز العاشرة الآن.

هدى تنام فى شوارع وحقول الحى الغربى، رغم محاولات عدة بإستضافتها من أسر كثيره، خاصة وأنه شاع فى الحى قدرتها على قراءة المجهول، وذهبت إليها النساء بأسرار عدة، وكانت هدى/العرافة كما يلقبها الجميع، تحفظ الأسرار بكل محبة وتقدير، بالطبع ساعدها علم الإجتماع والكثير مما قرأته فى علم النفس أثناء دراستها بالجامعة، خاصة وأنّ الكل لم يطلب منها المعجزات وإنما يطمع فى كلمات قليلة مغرية وفضفاضة تساعدة على تحمل التعب والمصائب التى لم تتأخر يومًا ما من الأيام عن زيارة حى النور الغربى، كلنا يعلم حجم ما بداخله من طاقة، بل يعلم أيضًا إلى أى مدى فى بلادنا حدود تلك الطاقة، خاصة وأنّ العالم العربى يبيت ويصحوعلى فكرة وحيدة، مفادها أنّ الله وحده هو من يقرر الغد، وأنّ الآخرة هى أرض الوعود لكل فقراء البسيطة، لذا لم تكن المهمة صعبة على هدى عندما يأتيها شخص ما لقراءة كفه أو طلب الدعوة منها، بالطبع قليل من القراءات المستقبلية قالتها هدى وتحققت – كقولها سيتزوج هذا من هذه ، أوأنّ فلانًا سينجب أطفالا عدة– مما جعل الأمر يقترب من جعلها فى المقام كبيرة كالشيخ حسن الشاذلى، ولكنها بذكاء حالت بين هذا.

(١٢)

تحلتْ هدى بوقار واحترام رافقاها كظلها أينما حلت، ولكن ظل النسيان هو عدوها اللدود، فصاحبها الأرق بسبب هذا العدو الجديد، ليال لم تعرف معنى النوم ، وكأنها أصيبتْ بداء الأرق الذى أصاب «ماكوندو»، ليال وهى تنخل ذاكرتها لترجع ماض بعيد إلى ساحة الحاضر.

كانت تعرف أنّ طفل البرتقال بحاجة لماضيها فى مقابل الحاضر الذى سيقدمه هو لها، إنحصر ما تذكرته فى كلمتين هما بحر و غريق ، وانتظرت أنْ تشرح الكلمات نفسها بنفسها بسهولة دون الخوف من النسيان.

(١٣)

حلم البسطاء، حلم مرواغ، سهل الممات فى أرض الرئيس /الشرطى «بن على»، ويتشبث الأهالى بالتعليم كحلقة وصل ما بين فقر فى البيوت وبين مستقبل فى الأفق قد يكون حصننًا لهم من هذا الفقر الكابوسى الأبدى، لذا كانت تشجع طفل البرتقال على الدراسة وكذلك أختيه الصغرى والكبرى، ولكن كان مستقبل طفل البرتقال يخط مصيره وسط حقول البرتقال والخضر بعيدًا عن مقاعد فصول المدارس، كثيرًا ما تغيب طفل البرتقال عن المدرسة بسبب جره لعربة اليد الخاصة ببيع الخضر والفواكه، خاصة وأنّ عمه – عمار– صار المرض يلاحقه.

عربة صغيرة تعول أسرة من تسعة أفراد ، بالإضافة للأم وزوج الأم الذى ورثها عن أخيه المتوفى، نعم يشارك الأخ الأكبر ببعض المال نتيجة عمله كصبى نجار، ولكن تظل العربة هى المفتاح لهذه الدار، ولايجب للمفتاح أنْ يصدأ أبدًا، كى تتواصل تلك البطون فى الهضم والإفراز بغرض الحفاظ على كيانها الإجتماعى والإنسانى بحى النور الغربى بوسط البلاد الغربى .

(١٤)

الأم تنتظر قدوم العرافة يوم الإثنين تحديدًا ، حيث هو اليوم الذى تصطحب فيه العرافة، طفل البرتقال وحسن- المعاق- للخارج، هذا اليوم صار مقدسًا لهم ، وطفل البرتقال حرص على جعل هذا اليوم يومًا خاصًا بذلك برغم محاولة أصدقائه بإقناعه بالتنازل عن تلك العادة المقدسة، التى بدأت تدريجيا منذ سنوات، حيث طفل البرتقال يصطحب أخيه المعاق بغرض التنزه، ثم انضمت العرافة لهما ، وصارثلاثتهم يعتبرون ذلك اليوم هو يوم الوعد الذى هو دين بإعتبارهم من الأحرار، الثلاثة يخرجون ، هدى وطفل البرتقال يجران حسن ، الذى يجلس على مربع من الخشب به عجل ، صنعه له سالم النجار الأخ الأكبر، بعدما صممه طفل البرتقال «محمد».

يتركون الدار ويتوجهون إلى حيث تتجه الخطى صدفة، مرة يصلون إلى خارج الحى ، ومرات يصلون لمعتمديات قريبة كالمكناسى، ومرة وصلا إلى حدود القيروان، الثلاثة يجوبون ولاية سيدى بوزيد غربًا وشرقًا وجنوبًا، خلال الترحال يحكى طفل البرتقال عن ساحة السوق ، وحسن يحكى عن أحلام اليقظة، وهدى تنقل لهم حكايات «الجازية» التى سمعتها من أمهما، بآخر المرات سأل طفل البرتقال العرافة:

- هل رأيتِ البحر فى الطفولة ؟

سؤال طفل البرتقال والتذكر، كانا يشبهان لهم ماعز صغيرة تهجم

على ضرع أمها ولن تتنازل عن أفضائه ببطنها الصغيرة، توقف الثلاثة عن السير، ونظرت هدى للسماء، فرأت العصفورة ذات البقعة الحمراء بأم رأسها تقترب ومن خلفها السلحفاة الصغيرة تطير وكأنها حمارة عرجاء بظهرها حمل ثقيل، ثم سألت هدى مجيبة السؤال بسؤال:

– بماذا يشعر الغريق قبل شهقة النفس الأخير؟

أجاب الاثنان فى جملة واحدة:

– إنه يموت.

ضحكت العرافة/هدى، وأشارت بإصبعها أشارة تفيد أنّ الإجابة خاطئة، ثم قالت :

– لن أقول لكما بماذا يشعر الغريق، ولكن يجب أنْ تتوصلا يومًا ما للإجابة الصحيحة، وبمناسبة البحر سأقص عليكما حكايته معى.

الحقيقة أنّ السؤال المتعلق بالغريق أول من قاله لهدى هو زياد الهانى، وهذا له موضع آخر فى الحديث، أما ما قصته هدى عن البحر فكان نصفة حقيقة والنصف الآخر تركته لخيالها ، هذا الخيال الذى سينقذها من فضول طفل البرتقال وحسن.

هدى تحدثت عن البحر، وكأنها تراه وتفتقده فى آن واحد معًا، اتضح ذلك من نبرتها العطوفة الحزينة، فقد كانت هدى منذ الصغر وبحكم أسرتها تذهب كثيرًا بساحل البلاد المطل على البحر الأبيض المتوسط ، تذهب وتنظر إلى الجهة الأخرى من العالم ، وعندما تيأس من

الوصول لهناك، تعود مأخوذة بلون المياه وللأمواج التى تصارع بعضها البعض وكأنها زوجة تطارد ضرتها للأبد، أخبرتهما هدى بنساء رأتهن وهنّ يسرن فوق الماء كبلقيس، ونساء أخريات يخبئن أحلامهن فى قواقع كامنة بالعمق ، وعليها حراس من «الحور العين»، أخبرتهما أيضًا عن جنود عبروا من الجهة المقابلة ، وناموا فى بيوت البلاد فترة ، وعندما رحلوا، تركوا جيوشًا من الجرذان يستخدمها الحكام الواحد تلو الآخر بهدف محاصرة البيوت وأهلها داخل زجاجة ملئية بحامض مميت ، يقتل الأحلام والأفكار، وعدتهما هدى فى المرة القادمة بأنها ستقص عليهما حكاية القروى الذى ذهب ليدرس بالعاصمة ثم تحوّل لفراشة محترقة بأعمدة الإنارة فى الشارع الرئيسى بالعاصمة، هنا حطت العصفورة على كتف طفل البرتقال ولم تفارقة إلاّعندما ينام فقط ، والسلحفاة الصغيرة وجدت مكانها بمقعد حسن، ذى الأربع عجلات، تعلق طفل البرتقال وأخوه بحكايات هدى كتعلقنا نحن بحكايات ألف ليلة وليلة التى تذاع فى شهر رمضان الكريم، وهدى تعلقت بحكايات طفل البرتقال عن السوق وعن مصادرة الشرطة للعربات ومحاصرتها للبائعين، كانت هدى بالفعل ترى ذلك بنفسها عندما يتصادف وجودها بالسوق، ولكن سماع تلك الحكايات من طفل البرتقال أمرٌ مختلف تماما، فأنْ ترى مشكلة ما فهذا لا يعنى أنك تحسها مثل صاحبها المهموم بها ليل نهار.

(١٥)

طفل البرتقال كائن أرضى ، لا يتمادى فى الخيال، يعرف أثمان الخضروات والفواكه، ويدرك أنه يعيش مع عشرة أفراد فى بيت ضيق، يرى حلم أخوته فى حركات أيديهم، وفى نظرة أعينهم ، يفهم جيدًا أنه كتب عليه الشقاء لحين قدوم الأجل، ويؤمن بحقول البرتقال ، لذا كانت صداقته تنحصر فى قلة من الأشخاص ، أهمهم بالنسبة إليه «مروان» و«سعيد»، مروان يحلم بالسير فوق الماء إلى حى الشانزليزية بباريس ، ويكره التعليم وساحة السوق، بمجرد أنْ تتحدث مع مروان تكتشف أنك أمام المثال الحى المجسد لكلمة «ناقم»، مروان منذ الصغر وهو لا يتحدث إلاّعن «باريس» وكثيرًا ما تشاجر معه طفل البرتقال ليغير الحديث، ودائمًا ما فشل محمد فى جعله يدير دفة الحديث تجاه أمورأخرى، مروان أحيانًا ما يساعد والده بساحة السوق وأغلب الأوقات يذهب للعاصمة ويعود بعد أيام عندما يفشل فى العثورعلى فتاة أوامرأة فرنسية تعود به لبلدها وكأنه جزء من متاعها الشخصى، لذا أول ساعات له بحى النور الغربى عقب عودته الفاشلة من العاصمة تكون هى الساعات التى يتصارع فيها مروان مع كل من يلقاه بطريقه ، أما سعيد فكان على النقيض من مروان ، يرى سعيد أنّ قرطبة والأندلس أفضل من باريس ، سعيد كان يحب التمثيل ويتمنى لو تطأ قدمه يومًا ما مسرح «الحمراء»، الحقيقة أنّ سعيد كان موهوبًا فعلا، وكثير القراءة، له تجارب فى الكتابة أيضا، وكثيرًا ما جعل سعيد من ساحة السوق مسرحًا كبيرًا .

(١٦)

غابت الطفولة من طفل البرتقال ومن صاحبيه مروان وسعيد، واختفت الفتيات وكأنّ الحى مدينة من الرجال، الثلاثة لايهتمون بالحب الذى هو أول الوجود وآخره، حاولت هدى/العرافة الزج بهم فى حكايات تمجد الحب، ولكن كلا منهم كان يهرب لفضائه الخاص، فقط حسن هام حبًا ولكن من طرف واحد بفتاة تكبره بقليل، فتاة بها سمرة غريبة كنحافتها بالضبط، الحى يلقب الفتاة بالبرص، لما تحدثه من ربكة لك، فأنت تراها الآن هنا ثم فى دقيقة عندما تصل لشارع آخر تجدها أمامك تتلوى وتدخل فى شارع آخر، يحكى محمد عنها ، أنها يومًا ما بساحة السوق طافت كالملائكة من عربة لعربة دون أنْ يلاحظها أحد من الباعة أوحتى من الشرطة، أخذت ما تريد فى لمحٍ البصر، واختفت فى السماء وعندما عادت صدمت الجميع ببياضها المرعب، مما جعل البعض يظن أنها ممسوسة، ولكنها كشفت حيلتها– خاصة أمام سعيد المسرحى كما يلقب بساحة السوق– وملصت جسمها النحيل من اللبن الذى استحمت به منذ دقائق فى حوش لبيت قريب من السوق، الفتاة التى تدعى لطيفة، تفتعل أشياء تؤكد جنونها ولكن أيضًا أفصحت بأكثر من مرة وبأكثر من إشارة ولغة أنها تهيم شوقًا بسعيد وتتمنى أنْ تتزوجه وتصيرهى نجمته الأولى بالمسرح الذى يحلم ببنائه فى حى النور الغربى.

حسن يحب لطيفة، ولطيفة تحب سعيد الذى يحب المسرح، يالها من

دائرة مغلقة كان يغوص بها طفل البرتقال، فجانب منه يريد السعادة لأخيه حسن ، وجانب آخر يريد الاستقرار لسعيد، ولكن كل ذلك بات فى عداد الأحلام ، بنهار كئيب من نهارات الشتاء، أُعلن أنّ لطيفة رحلت بالأمس مع زوج يكبرها بعشرين عامًا للعاصمة، وأُعلن أنّ مروان أيضًا ركب البحر باتجاه «لامبادوزا» أحد الشواطئ الإيطالية، وبعد دقائق من انتشار تلك الأخبار كان الخبر الأهم هو أنّ الشرطة ليل أمس قبضت على سعيد.

شعور مؤسف أنْ تفقد أصدقاءك دفعة واحدة بلا مبرر أو تمهيد، وشعور قاس أنْ ترى أخا معاقا هجرت مخيلته حبيبته للأبد، وفوق كل هذا أخوة فى حفرة عميقة ولا منقذ لهم سوى انتزاع أعضائك وجعلها حبلا من مسد، فأنت الآن عارٍ كيوم ولدت ولابد لك من إنقاذ أسرتك أيضا.

تذكر محمد سؤال العرافة المتعلق بالغريق، وترك نفسه يجوب الحى بمفرده، برغم أنّ اليوم هو يوم الوعد –الإثنين–لأول مرة محمد يخلف ميعاده مع العرافة، كان مهمومًا، حزينا، يشبه العجوز الذى تحول لسلحفاة صغيرة بمجرد أنْ تجد قطعة قماش أمامها تقف وكأنها وقعت أسيرة فى معركة عالمية الأبعاد، الحقيقة أنّ محمدا كان يفكر فى تجهيز أخته الكبرى ، فقد طُلبت للزواج ووافقت الأم والعم والأخ الأكبر، والدار تفر منها النقود كمن يفر من هول يوم القيامة، والأخت الصغرى ، لابد لها من الاستمرار فى التعليم كأختها الكبرى خاصة وأنها متفوقة بالتعليم

وتحلم بكلية الإعلام ، هنا فكر محمد بضرورة العمل بجانب العربة أو ترك العربة لأخيه والالتحاق بعمل يدر دخلا ثابتا، بعيدًا عن هذا الدخل اليومى الذى أهلك ظهره، محمد يسير و تلك الأفكار تصاحبه عوضًا عن حكايات العرافة وجر أخيه حسن.

وبمجرد أنْ وصل خارج الحى بعدما طاف الحى أكثر من عشر مرات وكأنه تائه فى حرم الحى، وجد العرافة تجر أخاه وصدى صوتها يقترب منه مناديا:

-محمد.

اقترب محمد.. قذف أخاه بابتسامة طالبة للتسامح ومعلنة الاعتذار، وبرّر تغيبه اليوم عنهما بسبب حزنه على سعيد، أشار حسن له بيده لينحنى ، ثم همس قائلا:

– بزمن ما وأرض ما كان هناك رجل تخرج الشمس من بطنه ويختبىء القمر أسفل إبطيه، وهذا الرجل وصل لقرية من جليد، فرّ القمر من بين ذراعيه وفرحت القرية، وعندما هربت منه الشمس ، انهارت القرية، أتعرف لماذا؟

– لا

أجاب محمد وهو يبتسم لأخيه الذى تعلم هو الآخر قص الحكايات، واصل حسن كلامه بهدوء وبعينيه صفاء لم يعهده محمد:

-قرية الجليد هى الهموم ياأخى، والشمس والقمر هما الماضى والحاضر، أما ما يحفظ القرية من الانهيار فهو المستقبل، هل فهمت يا محمد؟

محمد بالطبع كان ينظر لأخيه على اعتبار أنه غائب عن الواقع لايدرى بشىء، ولكن هاهو الذى لايدرى بشىء يخبره عن كل شىء، العرافة كانت تتابع الحديث بلهفة ، وبمجرد أنْ انتهى حسن من كلامه، وضعت يدها على كتف محمد وبإشارة من يدها طلبتْ كفه اليمنى، ثم بدأت فى قراءة كف محمد، وأخبرته عن زواج أختيه وزواجه هو وأخوه ، ثم أطلعته على قصر فيما وراء البحور ينتظر باعة البرتقال منذ زمن طويل.

عاد الثلاثة للدار وتوجهت الأم لسطحها بحثا عن نجمة كانت تصادقها منذ أكثر من أربعة وعشرين عامًا مضت.

(١٧)

تزوجت الأخت الكبرى وأنجبت ، وتزوج سالم الأخ الأكبر وأنجب هو الآخر، صارت الأم حفيدة، تنظرإلى أحفادها وهى تضحك، بينما تكتم أسرارها بطرف جلبابها الطويل دائما، محمد نعم هو كاتم أسرارها، ولكن فى قا ع النفس البشرية تظل هناك أشياء يجب الاحتفاظ بها بمفردك، وإلاّ خاصمنا النوم لحين قيام الساعة، كانت الأم بعد ميلاد محمد بقليل قد أصيبت بضعف النظر، وكانت اليد اليمنى لوالد محمد بالبيت، تذهب للسوق وتذهب للحقول بغرض الإعداد لسلع زوجها بعربته الصغيرة ، وفى يوم وصفته هى تحديدًا بيوم «انكسار الروح»، الضباب أتى مبكرًا منذ الساعات الأولى لليل السابق ، لاأحد يكاد يرى الآخر، وكأنّ حى النور الغربى صار حيًا من البخار المغلف برائحة الثلج ، أنْ تنظر لقدميك لن تراها، هاهوالإنسان يعود لنقطة البدء، حيث كلمة الإنسان تساوى كلمة ما، قد تفقد معناها بوصولك لقوم جدد بمكان جديد، الأم تحمل فوق رأسها حملا ثقيلا ، وتريد الذهاب لساحة السوق عقب عودتها من الحقل الذى ابتاعت منه بضاعتها، ولكن بسبب فقد البصر قليلا، وبسبب ذهاب العقل وراء الشرود كذهاب ديكارت أو جاليليو وراء الأفكار، ضلت السيدة طريق السوق ووصلت حدود بلدة أخرى، عندما أحست طول المسافة، توقفت قليلا، وإذا بها تتبع الحس الإنسانى فى الوجود والمعتمد على وجود آخرين بجانبك، حتى

وإنْ كانوا من الأعداء، اشتهاء عبور شخص ما فى تلك اللحظة فاق اشتهاء الأم دخول الجنة، بالفعل سمعت سيدة تعبرها ، فأعلنت عن نفسها وسألت:

– صباح الخير، أمازالت ساحة سوق حى النور الغربى بعيدة يا بنتى؟

– حفظ الله بصرك ياسيدتى، أنت تقتربين من المكناسى، عليك العودة للوراء.

بذلك أجابت المرأة التى وضح من صوها رغبتها النهمة فى الحياة ودلل الصوت على شباها الأرعن، استدارت الأم، بعدما شكرت المرأة ، أنزلت حمولتها وجلست، كان الخجل يتسرّب من أصابع قدميها إلى أن وصل لوجهها، ارتجفت العين، وعجزت عن احتباس البكاء، ألهذا الحد يمكن للفرد أنْ يفقد ذاكرته وإحساسه بالأماكن، ألهذا الحد يمكن للبصر الاختفاء بغتة؟

ألهذا الحد يعاقبها الضباب على فعل شيء ليس لها ذنب فيه!!هواجس كثيرة وأفكار جعلت الأم تفقد ساعة من وقتها فى البكاء المر.

عزمت الأم على طلب دفنها عقب موها الذى سيأتى يومًا ما، فى هذا الموضع تحديدا، ذلك الموضع الذى انكسرت به روحها، وصارت لها روح زجاجية مشروخة، لن ينفع معها أية إصلاحات لتعود كما كانت يوم ما، ولكن حزن تلك اللحظة الأبدى بداخلها منعها من قول وصيتها لأقرب الأقربين منها محمد، مع العلم أها احتفظت بأمل أن تخبره بذلك يومًا ما.

(١٨)

ليس هناك من تهمة للأصدقاء تفوق كونهم أصدقاء بالفعل، قدر محمد أنْ يحمل هذا الهم إلى مالانهاية، سعيد يخرج من السجن المرة تلو الأخرى وفى كل مرة يفقد جزءا من توازنه، وهاهو الآن يصبح مجذوب القرية، وكأنه تقمص شخصية المجنون للأبد، نظام «بن على»جعل منه عبرة لمن تسول له نفسه تنفيذ حلم التغيير، لايجوز لأى مواطن بالبلاد يقود التغييرإلاّ قائد التغييروقائد الانقلاب الطبى الرئيس المبجل «بن على»، عندما يقترب سعيد من ساحة السوق بملابسه الرثة وحالته التى تستعطفك لتذكر أيامه الخوالى ، يجد محمد نفسه فى مأزق إنسانى فظيع، يحاول بكل الطرق مساعدته، ولكن هل المجنون يسمح لك بمساعدته؟ قال البعض إنّ سعيد من كثرة التعذيب ، اخترع جنونه وصدقه كى يهرب من السجون ، سعيد يؤمن بالعدالة والحرية والكرامة، وينتمى للفكر اليسارى، يحب جيفارا، ويؤمن بماركس ، وأحب المسرحيات لقلبه هى «بانتظار جودو» لبيكت ، كثيرًا ما كان يتحدث مع محمد عن تلك الأفكار ، ولكن بساطة تعامله مع الحياة جعلته يحب صديقه دون الانتماء مثله لليسار، وإنْ كان فى الباطن يرى تلك الأفكار ضرورية حتى وإنْ كان صاحبها هو الشيطان نفسه ، ولكن للأسف سعيد فقد عقله ، خاصة بعدما أخبره حسن ذات مرة أنه غير قادر على نسيان «لطيفة» وأن الأخبار جاءت من العاصمة تقول إنها انتحرت حزنا على

فراق سعيد .

مروان هناك بجانب نهر «البو» بـ«تورينو» بشمال إيطاليا يكتب الرسائل الإلكترونية لمحمد ، يلعن الحظ، والنساء، ويشرح باستفاضة، كيف عانى من عنصرية رهيبة فى البداية، وأنه يعمل بساحة «بورتا بالاتسو»أكبر أسواق إيطاليا، يذهب فجرا فيفرش البنك ، ثم يعود عند انتهاء اليوم ليلملمه من جديد، كان أمله فى الذهاب لباريس محركه فى البداية ، أخبره صديق بضرورة الانتظار فى إيطاليا بهدف الحصول على تصريح إقامة لأن ذلك سيضمن له دخولا آمنا بفرنسا – خاصة وأن فرنسا منذ سنوات لم ولن تعطى تصاريح إقامة كإيطاليا ، اقتنع مروان بالانتظار وجعله ذلك الأمل شخصا محبا للعمل وسعيدا ولكن فصل الشتاء كان يمر عليه كالسكين الصدئ عندما يغوص فى اللحم الملئ بالعظم، فالبرد فى تورينو غير البرد الذى يعهده بحى النور الغربى.

****

ضاع الأمل الذى طال، وأصبح مروان شخصا آخر، شخص كأفراد الطرابلسى، يستيقظ عصرا، ويمتلك النقود، ثم ليلا تجده بصحبه أجمل الفتيات.

غلبت على رسائله الأخيرة أحاديثه عن نساء إيطاليا، مروان قد صاحب صديقًا من المغرب يصغره عمرا ولكن به جرأة نابليون بونابرت فى اقتحام المجهول، هذا الصديق المغاربى عرفه على آخر أفريقى من

السنغال، الثلاثة كونوا معا شبكة لتجارة «الزطلة /البودرة»، وبدأت الحياة فى الابتسام لهم بمكر لم يلحظوه ، كانت الصور التى يرسلها مروان تكشف مدى الثراء الذى أحل به، وكحال البلاد هنا كان الفاسدون هناك، حيث يعمل الثلاثة برعاية مارشال إيطالى، مروان كان يحلم بأن يصبح زعيما للمافيا الجديدة على حد قوله، فكان يقول دائما:

– « إن المافيا الإيطالية فى طريق دفنها الآن».

بالفعل كانت هناك سيطرة للمافيا الألبانية أعقبتها الصينية، والآن قد تكون شمال أفريقية، حاول مروان كثيرًا إقناع محمد بالقدوم لإيطاليا وأنه سيوفر له الزيارة وسيستضيفه بمنزله، ولكن محمدا كان يتهرب من ذلك دوما ، فمحمد فقد أخا له واضطر للزواج من زوجته والعناية بأطفاله، الزمن يعيد نفسه فى تلك العائلة المسالمة التعيسة، الأب يموت وتتزوج الأم من أخيه، وهاهو محمد يكرر ما حدث مع زوجة أخيه، والآن ينتظر طفلا ، لذا لم تجد دعوة مروان صدى يذكر فى عمق مخيلة طفل البرتقال.

****

لكن ذات يوم رأى محمد جثة مروان تتصدر شاشات التليفزيون، والخبر يقول»شاب تونسى تخرج منه أحشاؤه على يد صديق بساحة

بورتا بالاتسو»بإيطاليا»، توفى مروان فى وضح النهار بلانساء حوله أو سيارة فارهة، توفى مطعونا فى بطنه، وسط مئات من البشر، بسبب تجارة المخدرات، هاجت الصحافة الإيطالية – كالقطة التى تفترس فئرا– على العرب دون الإشارة أو التلميح للمارشال الإيطالى بالطبع، وعندما رأى محمد الخبر علق بحزن:

– هاهى باريس ستظل بعيدة يا مروان.وستظل فرنسا أكذوبة أبدية تهيم وحدها فى المطلق.

(٢٠)

على الجانب الآخر حاول محمد بكل الطرق البحث عن عمل وفشل، حاول الالتحاق بالجيش وفشل، يرى أفراد عائلة زوجة الرئيس ينتشرون فى الدولة كالجراد، وهو لايستطيع إيجاد مكان لذبابة على الأقل، كتبت عليه العربة، وكتب عليه جلد الذات كل فجر لحظة تحركه لساحة السوق وهو يجر أثقاله ورزقه لحافة رصيف بساحة تسمى ساحة السوق، يجر عربته وصورة تلك الشرطية تطارده حتى فى أحلامه، امرأة عازفة عن الزواج، عبرت الثلاثينات من عمرها بفخر زيها الشرطى، امرأة على حد قوله»تزوجت ملابسها الرسمية»، الشرطية»فادية» يعتقد محمد ونحن معه أنّ فرويد قد خسر كثيرًا بسبب وفاته قبل لقاء «فادية»، كثرت الأقاويل حول تلك المرأة التى تعشق إيذاء الآخرين، الغريب أنّ محمدا شخص مسالم بفطرته، حتى عندما تأتيه فى الحلم وتسحب عربته لايجرؤ على الانفعال عليها حتى باللفظ ، محمد كحال مئات مثله، لايمتلك ترخيصًا بالوقوف فى ساحة السوق، ولكن هذا الحيز الذى يوازى مترين مربعين هو سر بقاء عائلته فى الوجود، الوجود الذى لايعبأ به «بن على» أو أى من أفراد حاشيته العظام، كان دخول الشرطية لساحة السوق أشبه بفيلم أمريكى الصنع، بطلته ممجدة ومحاطة بهالة عبقرية، تدخل لتطارد الهاربين من سداد رسوم الولاية، الكل يطلق عليها «المرأة الشبح» فهى تأتى وتختفى وكأنها لاتملك بيتًا أو سريرًا،

فالكل يؤمن أنها امرأة تنام بالساحة، من كثرة تواجدها، وإنْ جاءت وأخذت شابًا أو أخذت عربته أوميزانه، عادت بحجج أخرى، كالتى تحن لممارسة الحب برغم وجود دورتها الشهرية، تعود لتأخذ أقفاصًا من الفواكه أو الغلال، هى تعود لأنها بحاجة لرؤية شخص يتذلل لها استمرار، امرأة مقطوعة الجذور، لاأحد يهتم من أين أتت، وإلى أين ستمضى، كانت تشاع النكات حولها، يقول أحدهم :

– تلك المرأة ستموت وهى تحمل ميزان بسبوس.

يقصد محمد البوعزيزى من كثرة تردد فادية عليه، كانت تتحول أحيانا لحيوان خرافى ولد بزمن الديناصورات، لها مخالب من كل الاتجاهات ومن رأسها تتفرع عقارب وثعابين، تسير وتخلف وراءها كميات من الغبار والرائحة النتنة المستفزة، فكلما هبت رائحة قميئة ، أيقن كل من بالسوق أن «فادية» بالطريق إليهم.

(٢١)

حاول كل الباعة المكر على العرافة، وانتزاع ميعاد وفاة أو زواج «فادية «منها، ولكن العرافة تنجح دائما فى الهروب من مكرهم، وتجيب:

–تلك سيدة لن تهدأ إلاّ بالسجن.

يؤمن الباعة بأن السجن لشرطى ، ضرب من الخيال، وأن ذهاب «فادية» سيعقبه قدوم شرطى آخر، ولكن ظلت تلك الأمانى المستحيلة تحركهم، انت العرافة برغم إغلاقها لباب الحياة، إلاّ أنها ظلت مرغوبة وجميلة فى أعين رجال الحى، شيء واحد فقط بجانب الأم هو ما جعلها تصمد فى مواجهة تلك الأعين، إنه الخوف، خوف الرجال من قدرة العرافة على سحلهم أو تحويلهم لحيوانات تعلق على باب ديارهم بغرض الزينة، العرافة تتابع محمدا وتتابع كيف صار الطفل رجلا، له أطفال، كانت تنظر إليه وتشعر بأنه نبتة صبار برى، سيظل مكانه للأبد برغم ذهابه المتكرر أخيرًا لبن قردان وبن عون والرقاب والخمارة (ولاية المهدية) ، محمد كان يسير كالنائم ، يخرج من الدار ليلا ، ويهيم على وجهه ثم يعود فجرًا، دون أن يوقظ أحدًا بالمترل يأخذ عربته ويتجه للسوق، مرة يعود مبللا من المطر ومرة يعود وقميصه مغسول بالعرق.

حسن أصبح يتحرك وحده على كرسيه المتحرك، والأم أغلقت باب

الحديث مع محمد حتى إشعار آخر، ينتهى هذا الإشعار عندما يحن محمد للحديث، ولكن برغم هذا الجو من الصمت إلاّ أنه دائم الابتسام فى وجه من بالدار خاصة الأطفال وأخته الصغرى التى على وشك الانتهاء من جامعتها، لاحظت العرافة، أن محمدا بداخل أعماقه يحن لرؤية العاصمة، والوقوف بعيدا أمام جامعة العاصمة ولو للحظة، لكنه أبدا ، لم يصرح بهذا، اختلطت الأمور على العرافة، فزياد الهانى، مازال يسكنها ومازال سؤاله عن الغريق يسكنها أيضا، زياد لم يعطها الإ إشارات من الإجابة، أما محمد وحسن فلم يتركا شخصا بالحى إلاّ وسألاه عن الإجابة : بماذا يحس الغريق فى آخر شهقاته؟ سؤال لفّ الولاية كلها والإجابة كانت عند زياد الهانى فيماوراء السحاب، السؤال شبيه بأفلام «ناصر خمير»عليك البحث عنه فى ذاتك قبل البحث عنه فى ذوات الآخرين، الحقيقة أن العرافة ترى الإجابة النموذجية هى أن الغريق يشعر بالغد الذى يراه ميتا أمامه، يشعر بالاندهاش الحى لمفارقة دنيوية بحتة، وهنا قررت العرافة الحديث مع محمد وحسن، فخرج الثلاثة بصحبة ابنة محمد «فريدة» إلى أول مكان خرجوا إليه عند إقرار الوعد بينهم بيوم الإثنين المقدس، صرحت العرافة بإجابتها عن السؤال، وروت حكايتها مع زياد، ثم اخترعت حكاية أخرى كانت قد قرأتها يومًا ما فى كتاب من بلد مجاور، الحكاية هى «حقول الرماد»وهى رواية ليبية، بطلتها فتاة تصارع عليها القدر والحكام والأفراد، وبسببها تحول الدرويش لمجنون و«العيد»– اسم بطل الرواية– لعاشق يفوق امرؤ القيس،

العرافة تعرف أنه يمكن العلاج بالحكايات، وتعرف أن محمد يمربمراحل من الاكتئاب المتقطع، وساعد العرافة على الدخول فى متاهة من رأسها بقعة حمراء- العجوز وشهرزاد-تدخلت السلحفاة فى الحديث وروت علامات الصحراء، وأعلنت عن سر موهّا الذى هو انقلاها على الظهر، حيث إذا قلبت على ظهرها فقدت التنفس ومن ثم الحياة، تدخلت العصفورة وروت حكايات عن ملوك وجان ونساء امتلكن الأرض بجمالهن، محمد كلما نظر لابنته وجدها متيمة بالسلحفاة، وكلما نظر بداخل ذاته وجد مروان وسعيد والشرطية فادية يمثلون مثلثا أبديا من الخضوع والسلطة والحلم، هنا أيقن محمد أن قدره غامض ومستفز، ولن تقدر العرافة بأى حال من الأحوال على تنفيذ رؤيتها التى تعود لخمسة عشر عامًا مضت عندما كان فى الخامسة من عمره وأخبرته بأن «حقول البرتقال ستتبعه»، لذا خدع العرافة بمكر وقال:

- هل ترغبين فى زيارة العاصمة معى؟

وافقت العرافة وهى مفعمة بالحيوية فقد ظنت أنها نجحت فى جعل محمد يفض حزنه فى كفيها كالمرأة التى تتخلص من جنين ميت بداخل أحشائها.

(٢٢)

العم «عمار»كثيرًا ما لجأ إلى قريب يعرفه ليتدخل بهدف الإفراج عن عربة محمد، ولهذا السبب نفسه كثيرا ما انتقمت «فادية»من محمد بطرقها الخاصة، محمد أصبح عالمه الخاص هو الموقع الإلكترونى»الفيسبوك»يسجل خواطره وأفكاره، يعلن عن حبه ل»جورج وسوف» وعن إيمانه بلحظات قد تأتى صدفة، كالهبة قد تغير عالمه الأعزل الممتد منذ زمن إلى مالانهاية، ولم يتخاذل عن قراره بالذهاب للعاصمة مع هدى/العرافة.

أخذا الباص ووصلا العاصمة فى صباح يوم الأحد، كم هى قاسية تلك العواصم !!ومتعب جدا كم الخوف الذى يكمن بروح العرافة!!

الغريب أن محمد ترك السلحفاة مع ابنته، وأصرت العصفورة على اصطحابهما للعاصمة، لم تكن هدى تعرف كلمة الأنانية، لذا توجهت على الفور مع محمد ووقفا أمام الجامعة، وتذكرت هدى قصة الطفل الذى وقف أمام فاترينة الجيلاتى، الطفل كان معدما من الفقر ومن أطفال تركته الحياة بأرصفتها كديكور مكمل لمعنى كلمة رصيف، الطفل اقترب من زجاج الفاترينة وبدأ فى لعق الجيلاتى من الخارج، وعندئذ أمسك به صاحب الحانوت وضربه لما أحدثة بالزجاج من اتساخ، هكذا كان محمد يلعق سنواته التى تمناها بداخل هذا المكان، والذى يراه لأول مرة فى حياته كلها، بعد ذلك أخذت العرافة محمدا لمنزلها، منزل كبير وخال من البشر، به لوحات وشجر وكم من الزجاج، المنزل يسكنه

العنكبوت والملل، كانت العرافة تعرف أن أسرتها بالكامل قد انتهت، فقد زج بوالدها عقب هروبها بالسجن، لما أحدثه من حرج للمسئول الكبير، ثم قادته الحياة لمصحة نفسية، وهو الآن مازال بها وقد يكون ميتا أو حيا فلم تهتم هدى، والدة هدى، تزوجت من مسئول آخر، واخوات هدى تركوا البلاد والآن يحملون جنسيات أوربية، أحس محمد بأن مصيبته أهون من مأساة هدى، وحرصت هدى على عدم الرجوع معه للقرية، وأعطته نسخة من مفتاح المنزل إن أحب الرجوع.

عاد محمد دون شهرزاد وهدى، عاد ليلعب مع ابنته، والسلحفاة.

(٢٣)

تأقلم محمد بشكل تلقائى مع مصادرة الشرطة لعربته ثم كره وفره من أجل استعادها، كانت ابنته وأولاد أخواته بمثابه العلاج السحرى للبقاء، وكانت تراوده أحلام بأنه سيكون هناك غد أفضل، بالطبع تلك أحلام اليقظة، أخذت السلحفاة هو وابنته يوما لمدينة الجنة فى الجنوب، حيث باب الصحراء فى الجنوب الغربى للبلاد، محمد بالصحراء اكتشف مدى ضعفه وعريه الإنسانى، ينظرإلى «فريدة» فيرى مسرور السياف يطاردها عبر متابعة ظلها على الرمال، لم يكن محمد معتادا على شمس الصحراء ، لذا أغمى عليه وسقط، ورأى مالم يكن يصدقه حالة إذا كان واعيا، رأى صوت الرمال هو الآخر، فريدة تقود سربًا من أطفال الحى الغربى، الأطفال بأيديهم أغصان من الياسمين، قبة من قصر أندلسى تظلل السرب، أصوات لآباء يدعون للسرب بطول العمر، السماء تتساقط منها ورود بها كل ألوان الطيف، العرافة تتحول لعصفورة بها بقعة حمراء على أم رأسها وشهرزاد تعود لطبيعتها وتهجر طبيعة الطيور، السلحفاة تجر وراءها آبار من المياه الزرقاء، وهو يقترب من أمه وبيده سلال من البرتقال الذهبى، وكأنه برتقال مغارة «على بابا»، أفاق من حلمه وهو على سرير بالدار، سأل عن كيفية عودته من الصحراء، فأجابت طفلته بأن السلحفاة قد جرته هو وهى إلى أن وصلت باب الدار، وعندها جاء دور جدتها التى وضعته على السرير وصنعت له الكمادات.

(٢٤)

العرافة بعد أيام لها بمترل الأسرة وحيدة، قررت الذهاب للحقل المدفون به الأدوات التى استعارتها من عبير أخت زياد الهانى، وبالفعل توجهت دون الذهاب لمترل محمد ، وبعد سبع ليال من الحفر وجدت أشياءها وعادت للمترل، لتعلق صور زياد بغرفة نومها.

(٢٥)

بمنزل محمد حفل كبير جاءه حى النور الغربى بأكمله ، حفل تخرج أخته الصغرى فى الجامعة، صاحبه أيضا الاحتفال بمولود سالم الأول بعد فترة كبيرة من اليأس، غنت الخالة «راضية» أغانى تراثية، وغنى محمد أغانى «الشاب خالد» الذى يحبه كثيرا مثل «جورج وسوف»، ولكن ما عكر صفو الحفل هو دخول والد الفتاة السمراء «لطيفة» وهو يبكى فى حجر حسن، ثم قص عليهم قصة انتحار «لطيفة» فقد خدعه الزوج الذى أراد أن يجعل من لطيفة مزارًا سياحيًا لأصدقائه من حاشية النظام.

دوّت عودة والد لطيفة وقصته فى الحى ، وحزنت السلحفاة كثيرا لدرجة أنها لسبعة أيام لم ترو عطشها الذى كاد أن ينهى حياتها فى صمت وخجل.

(٢٧)

تعتصر المصائب محمدا، وتبدأ أحلام اليقظة فى التطور والنمو كحال أن تخط شخصية ما على الورق، للعلم محمد اعتاد تلك الأحلام منذ فترة طويلة، وبرغم أن الدار قلّ عدد سكانها نتيجة حالات الزواج، إلا أن غلاء المعيشة جعل كثرة عدد سكان الدار يتساوى مع قلته، وكأن الزمن قد تسمر بحوائط البيت، كثيراً ما سأل محمد نفسه:

– هل يمكن للحكومة أن تسأل الأرصفة عن سكانها بدلاً من أن تضاعف رسوم التراخيص اللازمة للبائع المتجول؟

بالطبع كانت ستجيب الأرصفة وستستفيض فى شرح حتى مايدور فى خلد الباعة سواء فى حالات الفرح أو الحزن.

محمد يتحدث الإيطالية والفرنسية، ولكن ما جدوى اللغة فى زمن الخرس، هذا الزمن الذى نتمنى فيه أن نصبح عاهرات، فهن على الأقل يضمنّ مستقبلاً أفضل منا فى بلاد العسكر والديكتاتورية.

تساؤلات عدة، ما بين وجودية ودنيوية، جعلت محمدا يتمنى أن يضع حجراَ بدلاَ من رأسه، ويحمله ليل نهار، تساؤلات جعلت محمدا يسير فى شارع ذى اتجاه واحد ، لا يسمح بالسير العكسى، وإلاّ توجب عليه دفع الغرامة الفورية.

عادة ما يكبر الأطفال بالدار والأم تضع قدميها بجدارة على عتبة الشيخوخة، والعرافة هناك بمترلها فى الشمال، ترى ماذا تفعل

وماذاستفعل؟ هكذا انتهت أسئلة محمد، وخفف من ضغط تلك الأسئلة عليه موقع «الفيسبوك» الذى أفرغ به طاقته التى كادت أن تقتله، الفيسبوك وأحلام اليقظة التى يتمنى بها كل الخير لأسرته وللحى وللباعة، هكذا تمضى ساعاته حتى الفجر موعد ذهابه للعمل، ولكن بمجرد أن تطأ قدماه ساحة السوق، يكتشف أن أمنياته يحول بينها وبين تحققها ، باب ضخم كباب قصر «بن على».

(٢٨)

برغم كل المحن يعبر العمر شوارعه كمارد فى الأدغال، محمد يبلغ السادسة والعشرين من عمره، وبصدفة سماوية بحتة، يعثر على رواية»حقول الرماد»تلك التى حدثته عنها العرافة من قبل، يقرأها فى جلسة واحدة، ويتوحد مع «جميلة» بطلة الرواية، ويستقر بمخيلته للأبد الدرويش، خاصة، لحظة ذهابه فجرا لمترل «جميلة» وتسلقه على سطح الدار وحلمه بالارتماء فوق «جميلة»الحقيقة أن محمدا توقف عند جملة :

(بقى عاريا من فوقه النجوم ومن خلفه الظلام) وأعاد قراءها عشر مرات وهو يبكى.

يقولون إن الأذهان تتلاقى كالطيور ، عند انتهاء مواسم الهجرات، ومحمد تلاقى مع العرافة فى تلك الليلة، حيث يقرأ «حقول الرماد» ويكتشف قرية «قرن الغزال» وهى تقرأ محمدا من خلال قراءها للمرة المليون لمذكرات «إمبرتو كال».

أيقنت العرافة أن محمدا هو إمبرتو وأن إمبرتوهو محمد– تقصد فى طفولتهما– نفس الظروف ونفس التشابه ونفس الهم.هدى أيضاَ سألت نفسها :

- ترى ماذا يفعل محمد الآن، وماذاسيفعل؟

محمد كان قدأعطى هدى عنوان صفحته على الفيسبوك ولكن هدى تكره الكمبيوتر وتعشق كفوف الأطفال، لذا لم تتواصل معه على

الفيسبوك ولولمرة من باب الفضول.

(٢٩)

محمد بشكل عفوى كتب على حائطه بالفيسبوك كلمة تبدو كالمخطوط الأثرى لايجب مسه أو تحريفه، كتبَ أنه ينتوى السفر وطلب السماح ثم لام على الزمن ، وأعلن عدم قدرته على التحمل.

****

الأم تعتقد أن محمد سيصاب بالجنون من كثرة أحلام اليقظة، خاصة عندما أخبرها عن حلمه بالبرتقال الذهبى أكثر من مرة، وأنه قريبا جدا سيشترى لها أجمل الهدايا، الحقيقة أن اليوم هو يوم غريب فى حياة محمد ، وهو أحس غرابة اليوم قبل أى شخص آخر، فقد رأى فى منامه المتقطع «لطيفة» تزوره وتسأله عن حسن أخيه، وتعترف له بأن ماحدث لها هو عِوض عن تجاهلها لحب حسن، ولكنها بررت موقفها ببيت من الشعر الصوفى لابن الفارض قائلة:

– إن القلوب إذا أصيبت بالهوى ...لايرتجى من ذا المصاب شفاء

ثم بكت «لطيفة»عندما تعرضت بالذكر لسعيد، رحلت لطيفة من الحلم على هيئة فراشة، وجاء مروان بصحبة فتاة أوربية غاية فى الروعة والجمال، ولم ينطقا بكلمة ، وإنما عبرا صحراء محمد بلطف وكأنهما من أطياف القيلولة القليلة ببطن الصحراء، بصراحة الحلم كان طويلا وصعبا على محمد، خاصة عندما رأى»فادية» تطارده فى عمق الصحراء

الخاصة به، وزادت الأمور عليه صعوبة عندما استيقظ قليلاً وفوجئ بقدوم والدته وإخباره بالتيه الذى حدث لها قرب «المكناسى»ورغبتها فى دفنها حيث ضلتْ طريقها، تركت الأم محمدا ما بين اليقظة والنوم، يفكر فى وصية الأم التى تعود لأكثر من ثمانية وعشرين عاما.

محمد يكتب على الفيسبوك نيته بالسفر وهاهى الأم تطلب منه وصية جديدة قديمة، لذا فكر طويلا فى المصادفة التى جعلته يكتب مسبقا رسالته وطلبه الغفران من أمه، هل كان يعرف أنه سيعجز عن تنفيذ وصيتها؟من التعب غلبته الأحلام مرة أخرى، فرأى المخرج «ناصر خمير»يأتيه طائرا وبيده أفيش فيلم كان قد سمع عنه قبلا وهو»بابا عزيز»الغريب ليس قدوم ناصر وإنما وجود ابنته بأفيش الفيلم، فريدة تتوسط الصورة بيد ناصر وبيدها برتقالة تنبع من النار ، ولون النار اتحد مع لون صفرة البرتقال عندما وصلت النار لقمة توهجها.

– مسكين أنت يامحمد.

هكذا همس محمد لنفسه بعد ليلة طالت كل حكايات ألف ليلة وليلة ، تجهز للذهاب للعمل ، ولمحمد عادة يجب الإشارة إليها وهى أنه يكره أن يستخدم المنبه بغرض مساعدته فى التيقظ، محمد يستيقظ لاشعوريا عندما يريد، فساعته الميقاتية منضبطة تماما على ميعاد الخدمة/العمل.

تسلل محمد من الدار وخرج يجر عربته لساحة السوق، الفجر يستر حى النور الغربى، كمن يلقى بخرقة من قماش على جسد عار لامرأة بقارعة الطريق، الصمت مرعب هذا الصباح تحديدًا.

جر عربته وهو يبحث فى عمق الأرض عن برتقاله الذهبى، وبداخله شعور كبير بأنه سيعود بهدايا لأمه لعلها تغفر له، قبل وصوله ساحة السوق، انشقت الأرض وصعدت «فادية» ولم يصعد البرتقال الذهبى ، «فادية»معها مساعدها، اعترضت طريقه كالعادة ، وأخذت العربة، وكالعادة تدخل العم «عمار»واتصل بقريب لهم وعادت العربة ، ولكن هل يمكن أنْ تغفر من تزوجت ملابسها الرسمية عودة العربة لبائع ما؟

الانتقام لغة يعرفها العسكر أكثر من الآخرين، والديمقراطية من يخشاها يجلدها، والحرية/الكرامة هبات لنا من حكامنا، هاهى «فادية» تقترب من محمد بساحة السوق مصحوبة برغبة هتلرية فى الإبادة لهذا البائع الذى جرؤعلى تحديها، ماكرون جدا أصحاب الملابس الرسمية، والحكام، لهم طرق خاصة فى الاستفزاز طبعا، أخذت عنوة سلة أولى من البرتقال الذهبى، وعادت لتأخذ الثانية، محمد يرى أنّ هذا البرتقال هو سر غفران أمه له، وسر بقاء أسرته فى الوجود، لذا اعترض، ومحمد فى الحقيقة مسالم جدا، وعفوى فى اعتراضه، ولكن من تزوجت ملابسها الرسمية ردتْ عليه بلطمة على خده، مشكلة الحكام والعسكر أنهم يتناسون أنّ الأفراد يعودون لعائلات وأسر، وأن الله منذ الأزل ميز الإنسان على الحيوان بالعقل، حتى وأن اختلفت حدود العقل من واحد لآخر، محمد يصرخ بطفولته المعهودة وطبقا لشخصيته التى لن يقدر على تغييرها بين يوم وليلة:

– ماذا صنعت ولماذا كل هذا؟أنا انسان بسيط يود العمل.
لم يكمل محمد جملته بسبب شروع من مع فادية فى ضربه.

****

نسيت الشرطية أنّ محمدا يعود لعشيرة «الهمامة» وأنّ عرف تلك العشيرة هو :
(إذا ضربت امرأة رجلا فعليه انتظار ارتداء الفستان).

محمد لايرى الجمع الذى شاهد الواقعة، وإنما يغوص فى نفسه بحثًا عن العربة وعن كرامته، يغوص فى رسالته أمس على الفيسبوك، ويغوص فى أسرته ومصيرها، محمد يسترجع كل حياته المسالمة البائسة فى لحظات، يقارن مابين نفسه وبين الحيوان، يرى «الشرطية» ماردًا ويرى كرامته فأرًا، هل يعقل أنْ تُطلق مجموعة من القطط على غرفة مليئة بالجرذان، وتَطلب من الجرذان الدفاع عن نفسها؟

كل هذه التساؤلات ومحمد يحاول بالمعتمدية الحصول على كرامته وعربته، لكنه يهان ويقذف بالسب أيضًا، محمد يدور حول نفسه فلا يرى برتقالا يحوّم فى سماء حى النور الغربى، يرى فقره يحاصره ويخنقه، والفستان بانتظاره فى حوش الدار، كانت العصفورة تحاوطه ووجه العرافة يلاصق أفكاره ...محمد يُدرك أنّ سيدى بوزيد خارج التاريخ

وكأنها بقعة عار على البلاد ، لايجب الانتباه إليها مهما حدث، الحقيقة أنه مات قبل أنْ يقرر موته المعلن على الملأ، لذا بدون تردد جلب قارورة البنزين، ووقف يُهدى العالم أرق كلماته عفوية :

– تصبحون على وطن أجمل.

قالت له العرافة عندما كان فى الخامسة من عمره « ستتبعك حقول البرتقال»، صدقتْ العرافة، وهاهو محمد يخوض حربًا من أجل استرداد حقوله وكرامته، محمد أشعل النار فى جسده، وتحولت النار للون البرتقال، وقامت الدنيا ولم تستطع الجلوس ثانية.

سيدى بوزيد البلد المنسى، يصبح أهم بلد فى العالم، تناولت وسائل الإعلام كلها الحدث، وخرجت معتمديات تثأر لنفسها، الحقيقة لاأحب أن أروى ماروته الميديا ليل نهارعن محمد وحرقه لنفسه، مايهمنى هو لحظة مواجهة «بن على» مع جسد محمد بالمستشفى، لاشىء يظهر من محمد بعدما وضع فيما يشبه الكفن، يعتقد «بن على»أن محمدا يراه أو يسمعه، ولكن ماروته شهرزاد لايؤكد ذلك، فهى تحولتْ لخيوط شفافة ودخلتْ أسفل الأربطة، وتحدثت معه كثيراً، محمد أنفاسه بها صفاء يفوق صفاء الجنة، يدرك أنه فَجرَ ماعجز عنه مئات مثل صديقه سعيد، سألت شهرزاد محمدا بلغتها الخاصة فى تلك اللحظة، حرصا على ألاّ يسمعهما أحد :

– أتذكر العرافة والسلحفاة؟

أجاب :

– نعم، وأرى وجه ابنتى ونهدي أمى، وأنفاس أبى وعمى.

سألته شهرزاد:

– وحسن؟

أجاب:

– نعم.

ثم سأل :

– ماذا عن سعيد.والعرافة الآن؟

أجابت هى:

– سعيد يقود سيدى بوزيد فى التظاهرات وهدى نقلت ضفتها للشمال.

علق محمد:

– الجنون قناع الفقراء دوما، وذكر جملة «ساراماجو»(الوحيدون المهتمون بتغييرالعالم هم المتشائمون ، فالمتفائلون سعداء بما يملكون)

وأ ضاف محمد :

– من المؤكد أن الكاتب يقصد الفقراء لا المتشائمين.

محمد لم يكن قد قرأ لساراماجو، وإنما وجد تلك الجملة صدفة بالنت.

ثم سألت العرافة: ماذا عن «فادية»؟

أجاب محمد بصوت حنون: مسكينة تلك الشرطية وبداخلى جزء

يتعاطف معها رغم لطمتها الفجة.

صمت الاثنان.

ثم عاد محمد وطلب برجاء منها :

– أخبرى أسرتى أنى سأسكن حقول البرتقال، واروى عنى مالم ستروه الأفواه والكتب.

بكتْ شهرزاد متأثرة بكلامه ، فاحتضنها محمد ونطق شهادته ثم مات.

(٣٠)

لم ترو العرافة يوميات البلاد الخضراء فى تحررها واسترداد كرامتها، وتركت ذلك للمؤرخين والميديا، وصمتت لفترة منشغلة بالبحث عن «إمبرتوكال»و «فريدة»ابنة محمد..........

(٣١)

بعد أشهر من هروب «بن على»وبعدما صارت نبوءة محمد بالوطن الأجمل تطوف الأوطان من الرباط للبحرين، قررتْ
العرافة بدء رحلتها الأخيرة بالصحراء، رغبة منها فى الموت بها، واستقرت عند باب الجنة كما يقولون عنها فى الجنوب الغربى هنا، بين صخرتين ينساب من بينهما الماء، كما ينساب من القلب الحنين، صنعتْ خيمتها على الماء وجلست.

****

مرت الظهيرة، وجاء الغروب ضيفًا على العرافة، تنهدتْ هدى ونظرت للماء فوجدت ملامحها تصل بوابات النصف الثانى من العمر

بل وأكثر بقليل ، طافت بذاكرها أغنية «تحت الياسمينة»فانسجمت معها، ولكن قطع هذا الانسجام القادمون فى الأفق ، خلف صوت الماء والرمال، هم شهرزاد فى هيئة إنسية – تعود من صمتها– وليس فى هيئة عصفورة، ومعها المخرج «ناصر خمير»والعجوز الذى ودع حياته كسلحفاة صغيرة، الثلاثة جلسوا معها على الماء، وبعد لحظات همست شهرزاد:

– رأيت مالم ستروه الكتب عن طفل البرتقال، لحظة دخوله سحر النار ولحظة نومه أسفل الأربطة بالمستشفى.

علقت هدى بهدوء:

– طفل البرتقال وضع نهاية حقبة من التاريخ على حافة عربته واخترع أخرى عندما أعلن رفضه.

العجوز لم يقل شيئًا وتَدخل «ناصر»قائلاً:

– كنتُ بصدد عمل فيلم عن قرطبة، ولكن فيلمى القادم هو «وهج البرتقال»عن طفل حرر الرمال من سرابٍ طال كثيرًا.

رَددتْ العرافة عنوان الفيلم القادم لناصر وكأنها تحدث نفسها، ثم صرخت:

– وهج البرتقال.

تركتهم الصرخة وعبرت الجنوب ثم وصلت للوسط الغربى للبلاد حيث الحقول ، عندما كانت فريدة ابنة محمد تبحث عن رائحة والدها

بين حقول البرتقال ووجهها ملىء بالفخر والكرامة.

(٣٢)

عادت الصرخة للعرافة عندما أمسكت بكف «ناصر خمير» وقرأت ما فيه قائلة:

– لن تعود للغابات ، وستبدأ من جديد البحث عن الهائمين فى ولاية»سيدى بوزيد».

ابتسم «ناصر»

وهبت رياح خفيفة، وأفسحت النجوم المكان لقمر مكتمل الاستدارة، نصفه باللون الأبيض والنصف الآخر بلون البرتقال الذهبى.